



Gaylord

PAMPHLET BINDER

Syracuse, N. Y.

Stockton, Calif.

893.7F179

0

12405159

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0112405159

01/12/58

BOUND

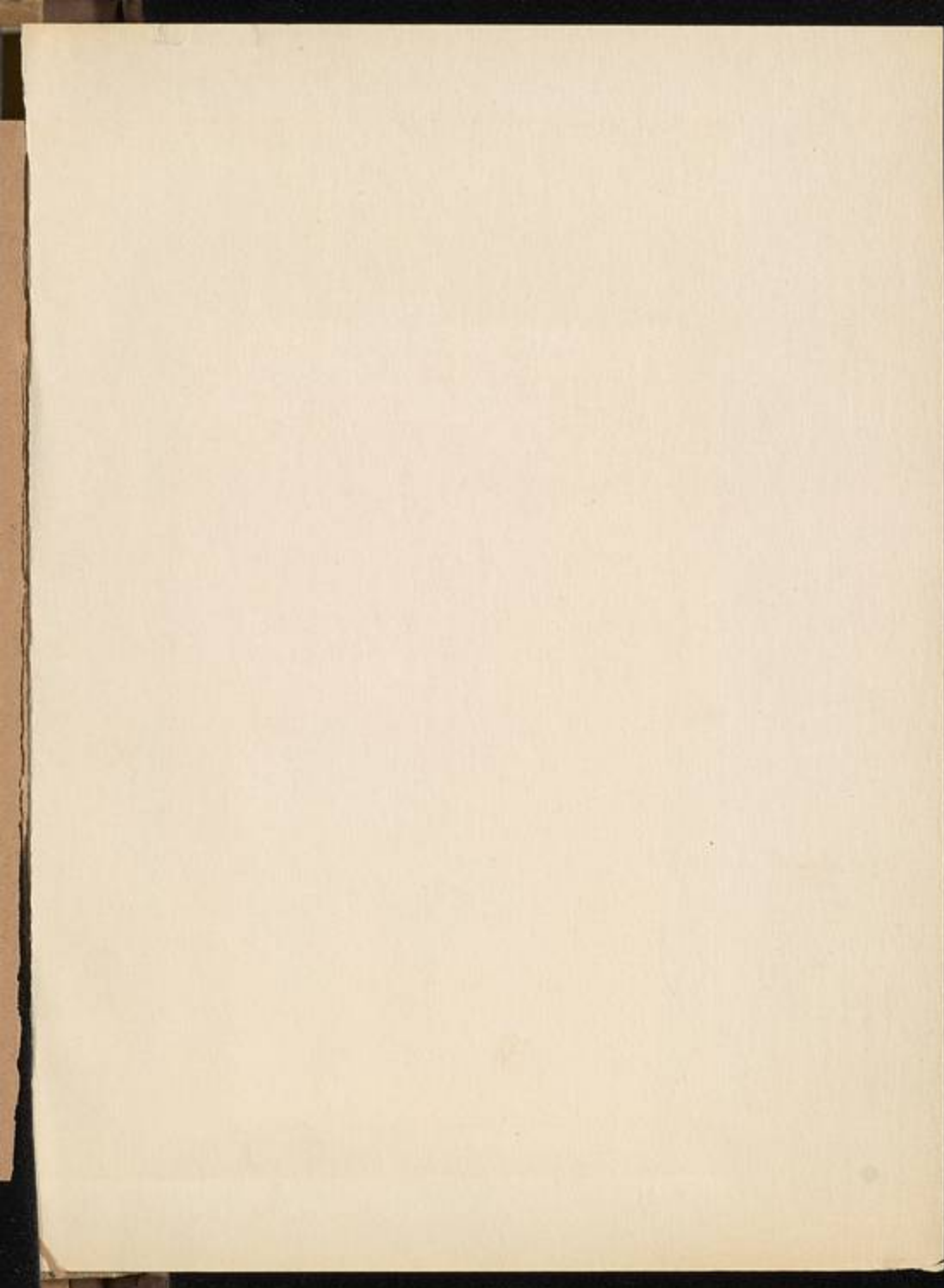
APR 11 1958

DATE DUE

NOV 1985

201-6503

Printed
in USA



Shah 14
France
COLUMBIA UNIVERSITY
LIBRARY

عمر قانوری

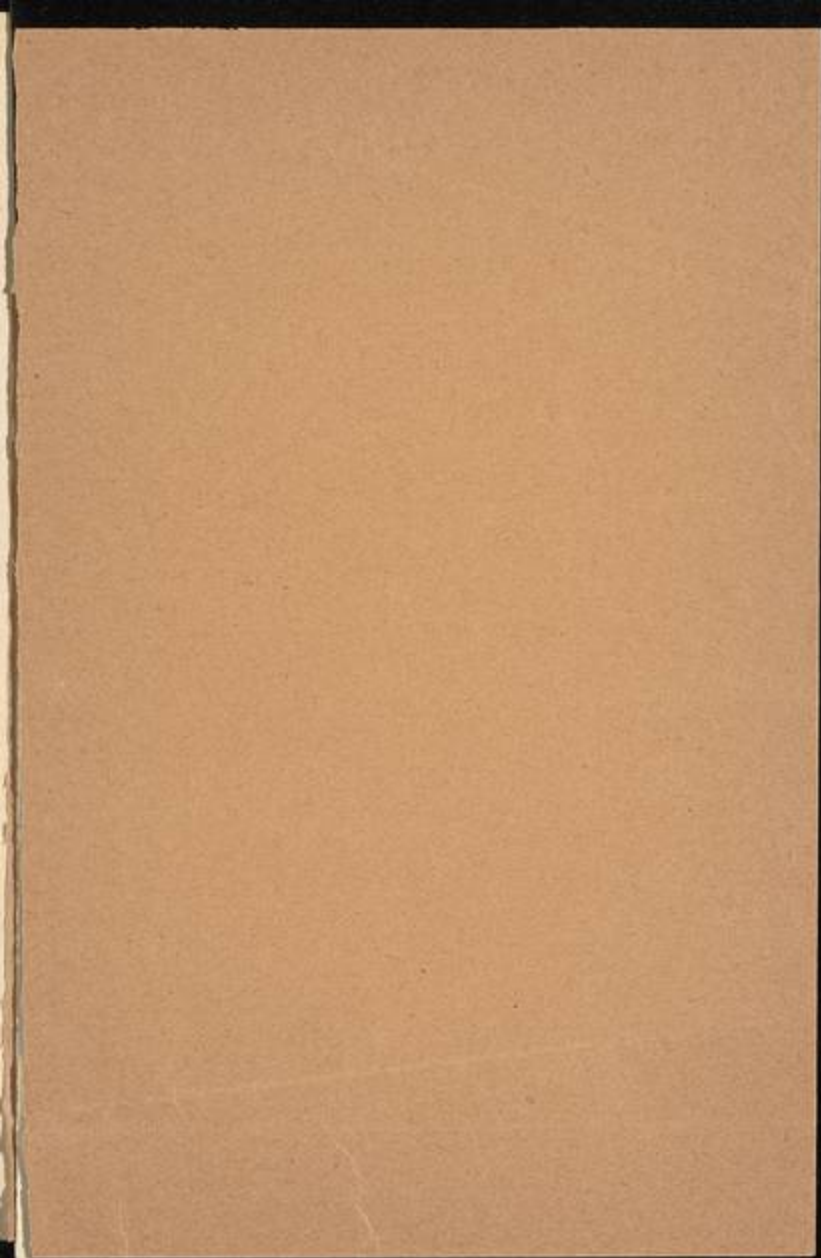
MAY 7 1945

COURTESY OF THE DIVISION
FRENCH PRESS AND INFORMATION SERVICE

An Agency of the
Provisional Government of the French Republic
501 MADISON AVENUE NEW YORK 22, N. Y.

الترغيب في السوق

منشورات « دار المبحشوف »



للمؤلف

الباب المرصود
الفصول الاربعة
لا هوادة
الحقيقة اللبنانية
الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية



آراء اناطول فرانس (عن الفرنسية)
آراء غربية في مسائل شرقية (عن الفرنسية)
مهاتما غاندي (عن رومن رولان)

عمر فاهوري

الزيب في السوق

مَشُورَاتُ « دَارِ الْمَجْشُوفِ »

طبع من هذا الكتاب الفان وخمسة نسخة على ورق جيد ،
وست نسخ على ورق فاخر مرقمة من ١ الى ٦ خاصة بالمؤلف

الطبعة الاولى ، ١٩٤٤

جميع الحقوق محفوظة

مقدمة

٢٠١

حمل اليّ البريد ، ذات يوم ، رسالة لطيفة
حقاً ! لو لم يكن من لطف صاحبها الا أنه يحدثني
فيها عن نفسي لكفى .. واذا قلت : عن نفسي ،
فانا اعني بالبداهة : عما اكتب ، ولا فرق . أليس
من نكد الادب على الاديب ، ان يسمي فلا يفرق
بين ذاته وكتابته ، اغلب الاحيان ؟ . ولم نقل :
دائماً ، حذر الغلو .. فلعلها من عاهات المهنة ،
تلحق المتأدب في هذا العصر ، كما تلحق سواء من
ذوي الاعمال . وقديماً قالوا : « لحقته حرفة
الادب » . انما ارادوا معنى آخر .

قال مراسلي ما نصه : فصلك الاول لم افهمه .
وفصلك الثاني فهمته ، لكن لا طائل تحته . اما

فصلك الثالث ، فما كدت استبشر بعنوانه خيراً ،
ثم انتهى منه ، حتى قذفت به من النافذة ..
وأتبعته نظري فاذا به يسقط على رأس احد المارة
الحاسرين فلا يؤذيه ، لضؤولة ما فيه .. وكان
الخطر من عنوانه الضخم : « الادب بين جيلين » .
فلاحسن ان تسميه من الآن فصاعداً : « الادب
بين محام وصيدلي » .. الخ . الخ .

واعجب ما في هذه الرسالة اللطيفة توقيع كاتبها
الظريف : « قاري . .. يقرئك السلام . »
لا بأس . قلن اثيرها اليوم ، مسألة شعوا . بين
الكاتب وقارئه :

— لماذا تكتب ما لا افهم ؟

— لماذا لا تفهم ما اكتب ؟

فتلك قضية قديمة لم يؤت احد من الخلق حق

الفصل فيها .. بل اني لأحسبها من المعضلات
الكثيرة التي ستبقى دون حل ، مهما جُرب فيها
من الحلول ، لاسباب لا يحصرها العدد ، حَسْبَنِي
منها هذا السبب الاساسي ، وهو : يجب للفصل بين
القارئ والكاتبين ، ان نوفق ، بادي. ذي بدء ، الى
قاض عادل لا يكون من هؤلاء. ولا من هؤلاء.
واين نجد هذا القاضي اذاً ألا في الأميين ؟ . لا
جرم انه قائل لنا ، ذلك الأيبي :

— أيش هذا كدّ القريجة ؟ اين تركتم عرق
الجبين ؟ وابوكم آدم ، بماذا قضى الله عليه اذ طرد
من الجنة ؟ تأكل خبزك ، بعرق جبينك .
وهكذا كنا اثنين ، فامسينا ثلاثة : الكاتب
والقاري. والخطيب — الامر الذي يزيد المسأ
تمعيداً .. اما قلنا انها معضلة لا حل لها ؟

اما مراسلي الظريف ، فقد كان يُخَيَّل اليّ ، وانا
 اقرأ رسالته ، انه يخاطبني من وراء توقيع المستعار ،
 كطيف من طيوف الخيال ، الذين يعاشرون الشعراء ،
 ويتجنون عليهم ما شاء التجني ، ثم يتربعون في
 القصيدة وكأنهم في عقر دارهم ، برفع الكلفة ..
 واحسب ان هذا المراسل يريد ان يتربع هو ايضاً
 في هذه المقدمة .. فليكن له ما اراد . انه لجدير
 بكل تكريمة . ألم يمن عليّ بقراءة ما اكتب ؟
 وإن انس لا انس يوم استوقفني في زحمة
 الشارع ، احد رفاقي الاقدمين في الدراسة « العالية »
 وكأنه يذكر فجأة انه عرفني فيما غير من الازمنة ،
 ولما نفترق .. فبعد ان حياني احسن تحية ، اخذ
 بذراعي كأنه يريد مؤاساتي في مصيبة نزلت او
 مستنزل بي . وكنت اتساءل وجلاً : « ماذا يريد بي

هذا الآدمي ؟ أخيراً ام شراً ؟ » ثم اقول : « خيراً
 ان شاء الله ! » فاذا به يلتفت نحوي ، والابتسامه
 العريضة على ثغره ، كالوردة التي ازدانت بها عروته ،
 قائلاً : « الجريدة الفلانية .. » وذكر احدى صحف
 البلد .

اجبت ، وقد سُرتني عني : « نعم .. نعم . »
 قال : « رأيت صورتك .. حقاً انها جميلة . »
 فشكرته وحمدت الله . وودعني وانصرف .
 وهذا قاريء لم « يقرأ » إلا صورتي !
 الا فنبثوني اي القارئین اعظم اجراً : اذلك
 الذي لم تعجبه مقالتي ، ام هذا الذي اعجبته صورتي ؟
 اكبر الظن ان الاخير هو اسعد الاثنين حظاً .

في البرج العاجي

١ مسرحية ذات فصلين

الشتاء والصيف « فصلان » من رواية السنة .
في الفصل الاول : يؤذينا البرد والوحل
والمطر ، فنتمنى الصيف .

وفي الفصل الآخر : يؤذينا الحر والغبار
والعرق ، فنتمنى الشتاء .

نريد شتاء لا برد ولا وحل ولا مطر معه .
ونريد صيفاً لا حر ولا غبار ولا عرق معه . نريد
الصيف والشتاء على سطح واحد ، اي على
سطحنا .

قال الشتاء للصيف ، واسنانه تصطك من

لبرد ، والدموع تهطل من مآقيه :

— ان هؤلاء البشر لا يرضون .

فأجابه الصيف وهو يحترق من الغيظ ، والشرر

يطأير من عينيه :

— ولن يرضوا الى يوم القيامة .

ثم رفع « الفصلان » نظرها ، متوسلين

مبتهلين ، نحو السماء ، الى مؤلف « الرواية » ، وهتفا

بصوت واحد :

— اللهم ، يا ستَّار . ا . الستار ، الستار . ا .

٢ خبر على ثلاث روايات

كان يتمتع النظر خلصة ، من النافذة المطلّة على
دار جارهم الاوربي ، بفخذين عاريتين على كرسي
مأخوذاً بهذا السر العاجي يفشيّه جسد غريب ، في
مأمن من الرقبا . وسرعان ما طوح به الخيال ،
فزئّن له الالوان والاشكال .. ماذا به ؟ هل نسي انه
من مدينة على شاطي ، المتوسط ، لا تحترم فيه المرأة
نفسها اذا لم يُنتهك ، فوق رمله الابيض ، جل
اسرارها ؟ . والراقصات اللواتي طالما شهدهن ، ساكنات
او متحركات او بين بين ، لازينة الا عريهن او ما
يشف عنه ، في مرابع القصف ، او سوق اللحم ، كما

كان يسميها في ليالي السأم والخيبة والعياء ؟ أفي
هذه السن المتقادمة ، وبعد تلك الخبرة الطويلة ،
عافاك الله ؟

وعلى مقربة من الكرسي طفل يبكي متضاحكاً ،
ثم يضحك متباكياً ، وكأنه ثمة لكي تكتمل في
ذهن هذا الناظر الحسير ، قصة الامومة ، بل الانوثة
الناضجة : المرأة الحسناء وطفلها اللعوب .. اذ راعه
صوت اجش ، صادر عن الكرسي ، ينتهر الصبي
بكل نبرات الرجولة ، فيا للصفقة الخاسرة !
واراد ان يُتمَّ « الواقعة » كأنما يثار لنفسه المغبونة ،
فتخيل ان زوجه اطبقت عليه ، في موقف خزيه
هذا ، فقالت وهي تتطلع من فوق كتفه :
— ماذا ترى ؟

فلم يجد سبيلا الى الهرب او الـكتمان ، واجاب
همساً :

— انظري .. جارتنا ١٠ فخذان جميلتان ..
فاغلقت النافذة بعنف ، وجرتـه من كمـه ، قائلة :
— ألا تستحي ، يا خنزير ؟

وكان ، اذا روى الخـبر ، يسره ان يختم
هكذا :

قالت لي ، وهي ترمقني بنظرة خبث واستخفاف :
— فخذنا رجل ، يا مسكين .. لكن جميلتان
حقاً !

وانفتلت ضاحكة .

٣ الكارثة

كان في اليوم الاول من هذه الحرب الاخرى (١٩٣٩ - ؟) يتجادل وصديقاً له ، في ظل القنديل الازرق . وكان ذاك اول عهده بالدنيا ، بعد ان أخرج من برجه العاجي حيث قضى في عزلته الطلسمية عمراً ، وهو منهمك في تلفيق المعاني ، وترويق المباني . وقد فجأته الكارثة ، اذ كان يعدو خلف قافية شرود ، فزلت قدمه ، فالله وحده يعلم كم لبث على الدرج ، متدحرجاً من شاهق البرج العاجي . ولم يكد يبلغ عتبة الباب ، حتى وجد نفسه في الساحة ، بين بني آدم المعذبين ،

واعلنت الحرب ١٠ . وكانت يده على جيبه ، وفي
جيبه طومار ، ولو انشق هذا الطومار كفلقتي
رمانة ، لكانت احدهما « القصة ذات الفصلين »
وكانت الثانية « الخبر على ثلاث روايات » ويا
للغنيمة !

إذا كان صاحبنا يحاور صديقه . ولم يكن
الحوار دائراً على محور المعاني الملققة ، والمباني
المزوقة ، ولا حول تلك القافية الشرود ، مزلة الأقدام .
فطفق وجليسه يتقاذفان باسماء الاعلام ، امثال
تشرشل وستالين ، وموسوليني وهتلر ، كأنها تارة
صواعق ، وتارة شتائم ، اذ حانت منه التفاتة الى
ماري الخادم الصبية ، وقد راعها هذا الخصام ،
تنظر ولا ترى ، وتسمع ولا تعي . . فسألها
كالستغيث :

— وانت يا ماري ؟ . من أي حزب ؟

اجابت لفورها :

— من حزب السيد احمد ، يا معلمي .

ترید : الحسيني .. ذلك ان ماري قادمة من

قرطبا .. تبأ لها ! انها لن تعرف شيئاً عن

البروج .

٤ التاريخ يعيد نفسه

كان الشاعر النجفي ، احمد الصافي ، يتصفح الجزء الاول من هذه « المراحل » ، مجيلاً نظره بين اغواره وانجاده ، وجباله ووهاده ، وكأنه في زيّه العربي الاصيل ، السندباد البحري قد سئم المقام بين دفتي « الف ليلة وليلة » بضعة قرون ، فشمّر متأهباً لرحلة تأمنة في عرض الاوقيانوس ، اذ عثر بذلك العنوان الضخم لتلك القطعة الصغيرة ، مما تخض به صاحب البرج العاجي ، خلال عزلته الطويلة ، زمن السلم .. فاصلح الشاعر العراقي جلسته ، وثبت نظارته ، ثم لم يكد يقرأ العنوان : « مسرحية ذات

فصلين» حتى شهد في الخاتمة كيف ان الصيف
والشتاء ، فصلي رواية السنة ، يضرعان الى المؤلف
وهو الستار الاعظم ، ان « يسبل ستره » نهائياً ،
فلا يعاد تمثيل الرواية ، وترتاح « الفصول » . وكنت
من ناحيتي ، اتدبر سر هذه المسرحية العجيبة التي
لا شيء اقرب الى عنوانها من خاتمتها ، ولا حوار
فيها إلا بين فصلينها وبين مؤلف غير منظور ، كأنها
في النوع القصصي ، بمثابة الشعر الصافي او الابرز ،
وقد تمثل لي لويجي براندلو حاملاً مسرحيته المشهورة
التي يقص فيها نبأ ستة « اشخاص » من دنيا الخيال ،
يسحثون عن « مؤلفهم » ويجدون في طلبه ، فلا يقرّ
لهم قرار حتى يخلقهم خلقاً سوياً ، أسوة بغيرهم من
ابطال القصص . وهممت ان اقول : « لله در صاحبنا
صاحب البرج العاجي ، فقد بزّ زميله الايطالي ، او

كاد .. « اذ بالشاعر النجفي يميل نحوي وينشدني
بلهجة عراقية حلوة :

يتمنى المرء في الصيف الشتا ،

فاذا جاء الشتا أنكره ..

لا بدا يرضى ، ولا يرضى بدا :

قتل الانسان ، ما اكفره !

هذان بيتان من الشعر لشاعر متقدم ، عرفتهما

وكأني اسمعهما أول مرة . كل « المسرحية ذات الفصلين »

فيهما .. حتى الخاتمة وما يرافقها من موسيقى صرير

الاسنان ، تجده في « قتل الانسان ، ما اكفره ! »

صدق من قال : « لم يترك الاول شيئاً للآخر .. »

وإن يكن صاحب البرج العاجي ، وهو ينافس

براندلو الايطالي ، الحائز على جائزة « نوبل » في الادب

العالمي ..

ودعت صديقي الشاعر الصافي ، وقد ساءني
 ان يُفجع ذلك العزيز صاحب البرج العاجي ،
 بمسرحيته التي وضعها ، على حد قوله ، بعد مخاض
 عسير . كنت — قبل ان القى هذا الراوية للشعر
 القديم ، الذي وسع حفظه كل شي ، ودينك البيتين
 من شعر لا يعرف قائله ، إلا اولو العلم — امشي في
 السوق على غير هدى ، اعني : لا اريد موضعاً
 بعينه . وكنت لخلوّ بالي وشرود ففكري ، إخال
 ان نفسي تطفّر أمامي مرحاً ، فأنا أقفو إثرها كما
 يتبع المرء ظله . بل لو اني شهدتّها حينئذ ترقص
 وتغني في قارعة الطريق ، لما كذبت حسي ، ولا
 انكرت هذا منها : أليست رجعة الطفولة في
 الرجل ، حيناً بعد حين ، في طبيعة الوجود ، ومن
 نعم الحياة ، فيكون ذلك في شجرة العمر ، كالشمر

الشهي في غير إبانه ، وبعد اوانه ؟ أمن العدل
 ان أكون في هذا الحلم الارغد من احلام اليقظة ،
 فيسلط الله علي شاعراً راوية حافظاً ، كي يفجع
 صاحبي ، صاحب البرج العاجي ، بمسرحيته ذات
 الفصلين ، فكأنني أنا أفجأ بنعيه ، على الماشي ،
 واذا نفسي حزينة ، منكشمة لا ادري في اية
 زاوية موحشة حالكة ، كالعجاء التي تحس دنو
 الاجل ، فلا يكون همها الا ان تتبذ ركناً
 مهجوراً ، كي تموت ، في نوع من الحياء ، بعيدة
 عن الانظار ؟

واخذني القلق وساورتني الوسوس ، فنفسي
 كالخرقة التي تعلق بجذائك الوحلة ، فتجرها جراً ،
 ثم تضرب بقدمك الارض غضبان حنقاً ، عسى ان
 تفارقك .. وصرت اتعث في مشيتي ، كمن يتلعثم

في كلامه ، او يتلجلج الرأي في خاطره .. اذا
 بصاحبي ، ذي البرج العاجي ، في الساحة ، بين
 بني آدم المعذنين ، يبتسم لي ولمن حوله .
 وكأنه عرف ما يدور في خلدي ، فغمغم بصوت
 بعيد القرار :

— لا بأس علينا .. قل انها ليست بسرقة ،
 بل هو التاريخ يعيد نفسه ، تارة شعراً ، وتارة نثراً ..
 السنن في عصر تاريخي بعد ان شهدنا الحريين :
 العظمى .. والاخرى ؟ . ألم ترّ الى الحرب الغابرة
 كيف كانت اشبه بقطعة من المنظوم ، والى هذه
 الحرب الحاضرة كيف صارت أشبه بقطعة من
 المنشور ، في انواع الكلام ؟ نحن المخضرمون ، وقد
 ادخلونا عنوة في التاريخ ..

« وهلمجرا ، وهلمجرا .. »

لكن لم اغادر صاحبي حتى اعدته الى برجيه
العاجي .

٥ ربيعي الاول

منذ أغريت نفسي بأن نتحدث عن الربيع
فأجابت بعد لآني ، وانا اكتشف اشياء واشياء ،
وكانني لا عهد لي بها من قبل . ففي جنيحة البيت
ابصرت فجأة ، شجيرة مشمش (يزعمون انها
حضرت مولدي) اعجبني منها ، اول وهلة ، هذا
الزهر الاحمر الضارب الى صفرة ، عالقاً باغصانها
قناديل صغيرة مضائة في رائعة النهار ، لاطفال في
عيد . لكن ما لبثت ان عرفت سر القناديل ،
فاذا كل واحد منها لحظة عتبٍ ساخر ، ترمقني به
الزهراء شزراً ، وهي تقول : « الآن رأيتني ؟ »

الآن رأيتني ؟ » تقولها وهي تتمم صدي ، كأنما
يسوءها ان أتقدم ، فأشارك الاطفال افراح عيدهم .
وخطر لبالي ان اذكر الشجيرة ، أمسها القريب
حين لم تكن سوى عيدان جرداء ممتدة في الافق
القاسي ، أيادي تبسطها الفاقة في السؤال ، لا لحم
عليها ولا دم .. فغاطني انها صدفت عني غير
مبالية ، وطفقت ترفل في خيلائها ، كالصبية
الحسناء ليلة عرسها ، ترسل آخر نظرة صادقة على
حلتها ، متهادية ذات اليمين وذات الشمال ..
وودعتني بنفحة من ارج ساطع ، خيل اليّ انها
تقهقه به ضاحكة .

وسولت لي نفسي ان اثار لها . فخرجت الى
الجنينة ، واخذت بنصر الشجرة السعيدة ، فهصرته
وهززته مغضباً ، فتساقطت المسكينة على رأسي

وفوق كتفيّ وبين اقدمي ، زهرات يتامى .
 وفيما انا واقف ارجو ان اراها مجهشة بالبكا ،
 اذا بها تتلملم بأسرع من لمح البصر ، كأن لم يك
 شي . ، فتصلح زيبها الذي تشعث قليلاً ، ثم تعود
 في خيلائها ، مضائة بانوار الربيع .

قلت لنفسي وانا اتكلف سروراً ظاهراً :
 « هلمي بنا ، في هذا اليوم المشرق من ايام
 البعث ! . لنطرح الكتاب جانباً ولنمض الى
 الضاحية ، فنستقبل بشائر الربيع .. »

فتبعني نفسي كالمرغمة ، وكنت اتلفت
 ورائي ، حيناً بعد حين ، لانظر اين هي ..
 ومشيت على مهل ، وانا اسرح الطرف معجباً ،
 كأنني افتح على الكون عينين جديدتين لم يسبق
 ان استعملهما احد ، كمثل نافذتين في دار مهجورة

أُقِفْتَا زَمناً طويلاً ، فلما آبَ الى الدار اهلهما ،
وُفِتِحَتِ النافذَتَانِ ، اخذتا تنظران وكان الارض
بُدِّلَتِ ، والسما غير السما .

وفيا نحن في الضاحية ، نبحت عن موكب
للربيع تُدَقُّ فيه البشائر ، اذ تجهم وجه الدنيا
وتربّد بالسحاب ، ثم أنزل المطر علينا مدراراً .

وهكذا عدنا من حيث اتينا ، ونحن نقص
على الناس اننا رأينا الربيع يدخل البلد متنكراً
في ثوب الشتاء ، مشمراً اذياله بين الوحل والماء ..



— ذهب ربيع وجاء ربيع ..

قالت ماري — ماري قرطبا ، التي لا تعرف

شيئاً عن البروج — لاختها :

— تعالي .. انظري الى هذه الشجرة الزاهرة

في جنينة الجيران .. سألني : « ما هذه الشجرة »
يا ماري ؟ « اجبت : « شجرة مشمش ، يا
معلمي . » قال : « أواثقة انت ؟ » اجبت :
« نعم ! » واعاد عليّ السؤال .. ثم اخذ في
الكتابة ليلة بطولها .. فزق كثيراً من الورق ،
قبل ان يملأ صفحة واحدة .

Handwritten text in Arabic script, likely a list or index, with some words appearing to be underlined or highlighted.

بینِ بینِ ..

١ الادب والمجتمع

خطر لي ، باديء بدء ، أن أجعل عنوان هذا الفصل : « أديب في السوق ، أو صيد نهار . » وما كاد هذا الخاطر يستقر في ذهني ، حتى تمثلتني مسلحاً بكل أداة صيد ، صيد البر وصيد البحر ، اعدو في زحمة المدينة ، خلف طيوف وشخوص ، واساطير ووقائع ، ورموز وحقائق ، مما تتألف منه هذه الحياة التي نعيشها ، أو هذا الوجود الذي نضطرب فيه . ثم رأيتني ، وقد أدركتني العتمة ، عائداً ادراجي الى البيت ، وأنا مشغل كالنحلة ، بخبيرة جديدة ، من ذنوبات لا عهد لي بها من قبل .

وبالفعل طاوعت نزوة خاطري ، انا المتردد
 الكسول الذي لم يخرج عمره مرة الى الصيد ..
 وهكذا وجدتني على الرصيف باسرع من لمح البصر ،
 مدفوعاً بقوة لا راداً لها ، كأننا تحركت في سويدائي
 بغتة طباعُ آبائنا الاولين الذين كانوا ، على حدّ قول
 العلماء ، قناصة صيادين ، قبل ان يمارسوا الفلاحة
 والصناعة والتجارة .. والتوظيف والجنديّة ، وسواها
 من المهن — حرة وغير حرة (ما كان منها حراً ،
 ففي دائرة ما ، وما لم يكن حراً ، فالى حدّ ما .)
 ولكن ائذنوا لي ان اقطع هنا سياق الحديث ،
 لأقص عليكم نبأ تجربة اولى من هذا النوع ،
 لست ازعم انها كانت موفقة ، ألا اذا كان الصياد
 الذي يخاف الشماتة اذا رجع خالي الجراب ، فهو
 يشتري صيده شراءً ، بدراهم معدودات ، يعدّ

موفقاً . هي تجربة دُفعتُ اليها بعامل بسيط جداً ،
 لا صلة له بالكبت ولا بوراثة الطباع الوحشية ،
 عن انسان الغابات والكهوف : لقد اغرتني بها هذه
 النظارات التي ركبت انفي ، وتعلقت بأذني ،
 ولصقت بذاتي ، حتى اكاد انسى احياناً انها اشياء
 مستعارة في حياتي .

كان ذلك لسنوات خلت . وكان أول عهدي
 بحمل النظارات أعالج ضعفاً في البصر طال العهد
 به ، واعتقدت اعتقاداً جازماً بأنه حرمني فوائد
 وملذات عديدة ، لا يحصيها العدّ . ما أكثر ما منيت
 النفس بأن أشهدها ، بفضل زجاجاتي الحادثة ، ما لم
 تكن تشهد من حالات وحركات ، وان أريها ما
 لم تكن ترى من خطوط واللوان . فكأنها تعرف
 الحياة جملة ، فستعرفها تفصيلاً ، أو كانت تكتنه

الوجود مختلطاً ، في ابهام وغموض ، فستكتننه تفاريق
في دقة ووضوح .

لقد كان ذلك اليوم يوماً تاريخياً في حياتي .
أنا رهين الكتاب ، سأعرف الهواء الطلق . سأخرج
من محبسي ، كما تخرج فراشة الحرير من شرنقتها ..
وجلس في الترام مزهواً مبتهجاً ، انظر يمنة ، ثم
انظر يسرة ، كمن يفتح على الكون عيني طفل
جديدين ..

ماذا كانت نتيجة صيدي ، في ذلك اليوم
السعيد من أيام العمر ؟ لقد دونت خبرتي الأولى ،
كما يعلق الصياد على جدران بيته رؤوساً وجلوداً
من حيوانات اصطادها .. أو لم يصطدها هو .
دونتها في وريقات طفت على لجج الزمن ، كما تطفو
حطام السفينة الغريقة ، قلت :

(عرفت في صباي ، أعني : في المدرسة ،
 فتي عنده من صفات الأنوثة ، الرقة والنعومة
 واللين ، يكاد لا يرفع نظره الى أحد . فاذا رفعه ،
 يحدثك وتحادثه ، لم يُجدّه فيك هنيهة قط ، وثغره
 يبتسم . كان حياً كالعدراء ، التي لم تحتلج
 — زعموا — نفسها بعاطفة سوء ، ولم تحتلج في حواسها
 نارُ شهوة . صافحته اليوم على الماشي ، قائلاً له
 على الطائر : « كيف حالك ؟ » فاجاب : « الحمد
 لله ! » ومرّ خفيفاً لا تحس الأرض وطأه إن تكن
 الأرض تحس على ظهرها ، ديب حي بين الاحياء ..
 الآن وقد درج الصبي ، وانطوت — بعد صحيفته —
 صحيفة الشباب .. الآن وقد انقضت سنون طوال
 كان صاحبنا خلالها — يقيناً ! — في أسر الشيطان
 وتجربته ، نفسه ميدان العواطف ، وحواسه وقود

الشهوات ، فهو ما زال كما عرفته ، خافض البصر
 كمن يحدثك خافض الصوت .. ولو شاء فنان صناع
 اليد ، لبق الفكر ، واسع الخيال ، ان يمثل في
 صورة ، كل معاني الخفر أو الحياء أو الطهر ، لما
 اخرج أحسن من هذه الصورة الحية ، وكأنها لوحة
 فنية تامة الاداء والتحميل : صورة انموزجية وكفى .
 ما رأيته يوماً إلا ذكرني تلك النبتة اللطيفة التي ،
 اذا لمستها طفلة بطرف أنفها ، اطبقت اوراقها ،
 وغضت من ابصارها ، ولهذا اطلق العامة عليها اسماً
 لطيفاً : « المستحية » . تبارك الله الفنان العظيم .
 (وأعرف رجلاً عنده حنكة ثلاثة شيوخ على
 الاقل ، جاوز الخمسين من سنه ، حتى لم يبق في
 الكون او الحياة ، شي . يصح ان يكون له مدعاة
 دهشة وعجب . بيد انه لا يزال كل آن وكأنه

الآن ولد . ان صاحبنا هذا ليحدثك في اقرب
 الشؤون اليك واليه ، وامسها بك وبه ، لكن على
 وجهه ، ابدأ وفي كل حال ، سيما الذي يعجب
 العجب الشديد ، منك ومن نفسه ومن الحديث .
 يعجب اذا شربت انت ماء ، ويعجب اذا خطا هو
 خطوة . وكان نظراته وملامح وجهه ، وهو يكلمك
 في الامور البسيطة التافهة المبتذلة ، اصداً مرجعة
 تقول : « يا عجباً ! يا عجباً ! » وهذه صورة فنية
 انموزجية ، هي اتقن صنماً وبرع دلالة من الصورة
 الاولى ، اذ لو كان في نفس « المستحي » بقية
 حياء ، فلا يصح ان يكون في نفس « المتعجب »
 اثر من عجب .. لكن الفنان العظيم ، تبارك
 وتعالى ، شاء ان يركب على كتفي هذا المخلوق
 العجيب رأساً مستعاراً ، وان يحمله في روحاته

وغدواته ، وقيامه وقعوده وسائر حالاته ، علامة الاستفهام (؟) الدائمة ، حتى ليتمكن القول انه يتعجب ايضاً حين يتعجب حقيقة ، او انه متى يسألك : « لماذا ؟ » مثلاً ، فانت تفتاظ ، كأنه يقول لك : « لماذا ؟ » مرتين دفعة واحدة .. لله في خلقه شؤون !

(اني منذ اسبوع ، اذهب كل يوم ، الى قهوة « الحاج داوود » كي امتع النظر بصورة معروضة في ركن من اركانها ، هي انفس من صورة المستحي بلا حياء ، واعجب من صورة المتعجب من غير عجب : هذا العجوز الجالس الى طاولة ، وهو يبكي .. يبكي باصرار ، حتى اني ، اول مرة رأيته ، كدت - لشدة ما رثيت له - لا اقبض يدي التي هممت ان تنبسط الى يده ، فتزها بلطف ،

معزية مشاركة في المصيبة . هو حزين ، جد حزين ،
 كأنما نُعيت إليه نفسه .. ويلعب بالنرد ، ولا يمسح
 دموعه . ماذا ؟ أتريدونني على ان اصف لكم ذلك
 الحزين بلا حزن ، الباكي من غير دموع ؟ . إن
 لساني لعاجز عن تمثيل تلك الصورة الفنية البديعة ،
 بل عن تناولها بشيء من الوصف .. بحسبكم ان
 تمشلوا شجرة من الصفصاف المتهدل الاغصان ،
 الذي يلقبه الفرنسيين بـ « البكاء » او ان تتصوروا
 سماء تطر ولا ماء .. فهذا وحده قد يوحى إلى
 الذهن بعضاً من مزايا الآية الخارقة ..)

ويجب الآن ان اتسلح بكل صفات الرجولة ،
 كي اقول لكم كيف انتهى ذلك العرض من
 صور اصطدتها ، لأول عهدي بالأدب « الحلي »
 المستمد من الواقع أو « الطبيعة » . قلت بصوت

بعيد القرار : « هنالك المستحي ولا حياء ،
 والمتعجب من غير عجب ، وهنا .. » هنا سمعت
 قهقهة ، فالتفت ، فإذا بالعجوز الباكي ولا دموع ،
 كأنه يضحك — وهو حقاً يضحك — من خصمه
 في النرد . بل كيف اقول انه يضحك ، بينا هو
 لا يزال يبكي ، ولا يني يزيد بكاء ، كالصفصاف
 المتهدل الاغصان .. بكت السماء وقهقه الرعد
 وليت القصة انتهت عند هذا الحد ! لا .. اذ
 يلوح ان صاحبنا الصياد لم يأوِ الى بيته إلا كي يعود
 الى الكتاب ، كما تعود فراشة الى شرنقتها ، وهو
 ما لم يشهد مثله التاريخ الطبيعى . عاد الى الكتاب ،
 فقرأ في « الفائق » للزمخشري ما نصه : (الحجاج —
 كان قصيراً أصغر كماً كماً . و « الكهاكه » لغة ،
 الذي اذا نظرت اليه كأنه يضحك وليس بضاحك ،

من الكهكبة .) فصرخ الصياد بملء فيه :
اوريكاً .. وجدته : كأنه يضحك وليس بضاحك ..
كأنه يبكي وليس ببالك . هي الصورة التي اصطدتها
من قهوة « الحاج داوود » على سيف الأبيض
المتوسط . الآن عرفته ، لأنني وجدت له اسماً يعني
عن جميع الأوصاف التي لم أجدها .. ستهتفون بي :
« انها عبقرية اللغة العربية . » هي ، في الأقل ،
طبيعتها وطبيعة سائر اللغات ، على ما نرجح . لو
شئت ان تمثل انساناً يبكي أو يتصنع البكاء ،
تقول : « كِهْ ، كِهْ ، كِهْ » برنة حزن .. ولو
شئت ان تمثل إنساناً يضحك أو يتصنع الضحك ،
تقول أيضاً : « كِهْ ، كِهْ ، كِهْ » برنة فرح ..
ولطالما رأينا المغرب في الضحك تغرورق بالدمع
عيناه ، كما نشهد على الشاشة البيضاء ، الممثل

: الماهر الذي — لضرورة الموقف — يبلغ منه الحزن ،
 . آخذاً في القهقهة (أو الكهكهة) ويسمون هذا
 ها النوع : الضحك المستيري .

ذلك ما كان من شأن تجربتي الأولى في الصيد
 الأدبي . فلم أكن متواضعاً إذ قلت لكم منذ
 البداية ، إنها لم تكن موفقة إلا بقدر ما يُنسب
 الى التوفيق ، صيد الصياد المشتري . فالصياد المشتري
 يعدّ موفقاً اذا لم يدفع ثمن ما صاده ، غالباً .
 وكانت خاتمة هذه التجربة اني وقعت في شباك
 الفاضل الزنخشري ، وقد وقف ذلك الكهاكه
 ينظر ، ويضحك حقاً وصدقاً ، بين دفتي القاموس .
 لنعد الآن ، اذا اذنتم ، الى نفسي التي تركناها
 على الرصيف ، معترمة المضي في تجربتها الثانية ، فقد
 املها الانتظار ، بينما طباع انسان الغابات والكهوف

تجيش في سويدائها ، كما لم يسبق له مثيل .

.. اذاً ما كدت اخطو خطوة على الرصيف ،

حتى رأيت الى جانبي ، على غير انتظار ، جارة

المصور النقال الارمني ، وكأنه بكر على غير عادة ،

لينافسني في مهنتي الجديدة ، منافسة غير حميدة ،

وهو حامل تلك « السيبا » المشؤومة التي يشنق

عليها صور الخلق او اشباحهم .. وطفق يوازن بين

مشيته ومشيتي ، وحسبت حيناً انه ينظر الي ، في

شيء من الاستخفاف ، فتحولت لفوري الى الرصيف

الآخر .

وهناك بصرت بآدمي حسن السمات والهيئة ،

يمشي على طرف الرصيف كبهلوان على حبل ،

متباطئاً متريثاً ، بخطى قصيرة مترنة ، كالمتفرج

بكل معنى الكلمة — المتفرج الذي لا شيء وراءه ،

ولا شيء ، قدّامه ، لكن عنده كل الوقت . ولما
 حاذيته ، رأيته يفرك يداً بيد ، في حركة طوعية
 طبيعية ، لا تدري أتنسبها الى الاضطراب الشديد ،
 ام الى الفرح بلقية ثمينة . وسمعتة يتم بين شفّتيه ،
 بكلام لم اتبينه ، اول وهلة ، خيل اليّ انه قريب
 من سجع الكهان .. كان هذا الآدمي يقول بصوته
 الخافت ، كمن يخاطب نفسه : « في دنيا الكدح
 هذه .. في دنيا الكدح هذه .. ليست الحياة لهواً
 ولعباً .. ليست الحياة لهواً ولعباً .. » وهو يخافت
 بهذا الكلام ، ثم يرجعه كالصوت وصداه . لعلها
 حقيقة يريد ان ترسخ في ذهنه ، لشدة ما آذته
 واوجعته في الماضي ، فكأنه يطمع بأن يثبتها الآن
 في صفحة الكون ، فلا هو ينساها ، ولا يغفل

عنها احد . بل لعله موسوس تلقف هذه العبارة عن
 من واعظ او ناسك او معلم اخلاق ، فهو يتسلى
 بها كالمسبحة .. وهنا ، أظنه أحس وجودي ،
 وفطن الى ما يدور في خاطري ، فالتفت نحو
 مبتسماً ، وغمز بعينه غمراً خفيفاً يكاد لا يرى ، كأنه
 يسألني : « ماذا ؟ » ويسألني : « كيف ؟ »
 ويسألني : « متى ؟ » في وقت واحد . فكأنني وإياه
 على موعد ، كي يطرح عليّ جميع هذه الاسئلة ،
 دفعة واحدة ، في ظل ابتسامة على وجهه النحيف ،
 وفي بريق عمزة من عينه الساجية . وكان الجو حولنا
 مشبعاً بكهربائية ذلك الكلام الغريب : « في دنيا
 الكدح هذه .. ليست الحياة لهواً ولعباً .. »
 فشعرت بحراجه الموقف ، وخجلت من فضولي ،
 وخفت سوء العاقبة .. اخذت ابحث بكل قواي

ة عن المخرج . قلت بعد تردد قصير : « كم الساعة ،
 أرجوك ؟ » فذهبت ابتسامته عرضاً حتى همَّ أن
 يضحك ، وازداد بريق عينيه حتى اوشك أن يطر ،
 وكاد لا يملك نفسه من الفرح ، كأنه يترقب هذا
 السؤال ليشار من فضولي .. قال متلطفاً :
 « الساعة ؟ . على وقتكم ام على وقتنا ؟ » قلت :
 « فهمت .. » وانصرفت عائداً ادراجي . وبعد
 دقائق كنتُ في البيت .. حسبي من صيد النهار
 هذا الآدمي الذي لا يقدم ساعته ولا يؤخرها ،
 رغم قوانين الحكومة .. هذا الآدمي العجيب الذي
 يبدو غير مرتبط بزماننا .. لله ما اعظمها وانفسها
 واغربها صيدة !

يقول الرسام الفرنسي النابغة « دوميه » وهو
 بالطبع يخاطب زملاءه من ارباب الفن : « يجب ان

فكون من زماننا . » يجب ، بعبارة أوضح واشمل
 ان نكون من زماننا ، وفي زماننا ، ولزماننا . أنا منذ
 بضع سنوات ، افحص في البكالوريا ، وكل دور
 أسمع مئات من الطلاب والطالبات ، اذا ما سُئلوا
 عن الشعر الجاهلي ، يلقون علينا هذه الامثلة .
 يقولون لنا : ان الشاعر الجاهلي كان خطيب قبيلته ،
 وحافظ انسابها ، وحامي اعراضها ، وناشر ابجاده ،
 الى آخر ما هنالك من السجايا — بل الوظائف —
 الاجتماعية التي كان الشاعر ، في طور (يزعمون انه
 الطور البدائي) من اطوار الأدب العربي ، موصوفاً
 أو قائماً بها . ولا عجب ، فالأدب مثل سائر الفنون
 الجميلة ، ظاهرة اجتماعية أصلاً ، ووظيفة اجتماعية
 فعلاً . وفي العمران البدائي ، نجد الفنون متصلة
 بالدين ، كفروع شجرة واحدة — رسا أصلها ،

ل
 وفرعها في السماء ، من الرقص المقدس ، الى الغناء
 ر: والترانيم ، الى النقش والتصوير على جدران المعابد
 ووالهياكل ، الى التمثيل الديني في افنيته وحول
 ساحاتها .. الدين — تلك المجموعة من معارف
 ، الانسان الأولى ، أو التفسير الأول للكون :
 ، بداياته ونهاياته ، واطواره وأسراره وجميع حالاته ،
 الحاضرة والمغيبية .. وبين الآداب والفنون على
 اطلاقها من جهة ، والحياة العلمية والصناعية
 والاقتصادية من جهة ثانية ، تفاعل دائم مستمر ،
 ليس يضره شيئاً ، الغفلة أو التغافل عنه .

لست اذعم ان الأديب العربي اليوم ، رجل
 غير مرتبط بزمنه ، أو على الأقل بمواقيتنا . لا ،
 فهو في الأغلب ، يزاول مهنة أخرى يتكسب بها ،
 كالصحافة أو التعليم أو عمل الدواوين ، ولا يُستغنى

في هذه المهنة عن الساعة — الساعة الاجتماعية .
 لكن الأديب العربي ، اذا خرج الى السوق ، فهو
 يمضي في حاجاته المعاشية ، وقاما يذهب في حاجة
 أدبه أو فنه . على انه قد يبرهن ثمة على حسن عملي
 لبق ، وكفاءة دقيقة شاملة . ففي مصر مثلاً ، وهي
 مادة ومعنى ، طليعة الأقطار العربية غير منازع ،
 المجلية في كل مضمار ، وقدوتنا في كل حسن وقبيح ،
 لا يندر ان ترى الأديب أو العالم ، وله الى جنب
 منبر في جامعة ، أو عمل في أحد الدواوين ، صحيفة
 دورية ، وشركة طباعة ونشر ، لا يفضلها من حيث
 « الازدهار واضطراد النجاح » أي مشروع تجاري
 آخر . وظاهرة أبلغ دلالة هو اجتماع فريق من جلة
 الأساتذة أو أعلام الأدب ، على تأليف الكتب
 بالمساهمة ، سواء أفي مواضيع التدريس أم على

هامشه ، بحيث ينتفي بينهم كل تنافس وتحاسد
 واستئثار ، فيجمعون هكذا الى وحدة الثقافة
 وانسجامها ، السيطرة على السوق .. لكن لا حاجة
 الى القول ان ما نعنيه هو غير هذه السوق .

والحق ، ليس في مجتمعنا أشياء كثيرة يُرضى عنها ،
 بل كاد لا يكون فيه ما يرضى مطلقاً ، في دنيا
 الكدح هذه ، في جميع مظاهر حياتنا : لعل له
 عذراً ، وأنت تلوم .. فلو نحن طالبنا الأديب بأن
 ينزل الى « السوق » حيناً بعد حين ، في غير
 حاجاته المعاشية ، فقد طالبناه اذاً بأن ينظر ويعرف ،
 ويعقل ويشعر ، وينفعل ويتحمس ، فتدخل
 — وبالمصيبة — هذه العناصر جميعاً في مادة أدبه ،
 وليس بعد ذلك — وبالمصيبة — إلا ان نلزمه
 القيام بعمل اجتماعي ، بينما هو يؤثر الاعتزال في

برجه العاجي ، في تفرّد حصين .. لا أذن تسمع ،
ولا عين تدمع . كيف — يا رعاكم الله — تريدونه
على التنازل عن « رسالة » الأديب ، مستبدلاً بها
« وظيفة » الأديب ؟

رسالة الاديب ١ . لقد كان الانبياء وحدهم ،
فيما غبر من القرون ، ذوي رسالة . فاذا كل من
عليها اليوم وله رسالة : الطبيب والمعلم والصحافي
والمحامي ، ويتبعهم الاديب . حلة مبهجة لستر
الفاقة .. حبذا لو ان هؤلاء « الرسل » يقولون من
التبجح برسالاتهم اقلّ كثيراً ، ويكثرون من اداء
وظائفهم اكثر قليلا ..

ولقد اخذ بعضهم على اديب او (متأدب) ما ،
اشتغاله بالسياسة ، زعماً منهم انه يسخر منه وأدبه ،
بل « الفن والادب » لاغراض لا ادري بمّ ينعتونها ،

او هم لا ينعنونها بشيء ، مخافة ان يُحملوا على
 الخروج من دائرة الغموض والابهام التي يجدون فيها
 راحة نفوسهم ، مكتفين بإيماة يبدونها ، او لهجة
 يتصنعونها . يقولون ان الكتاب والشعراء هم
 « حفظة » القيم الانسانية « الباقية » ، وخالقو الامثلة
 العليا في عصر من العصور ، لجيل من الناس ، فلا
 ينبغي لهم ان يسفوا ، او يتبدلوا ، او يتعرضوا لما
 لا يعنيههم . لكن ، ترى ، اية سياسة يعنون ؟ إذا
 كان كل قيمة انسانية ، وكل مثل اعلى ، عرضة
 لأدهى خطر ابتلي به المجتمع ، بينما الامم والافراد
 في معسكرين اثنين ، في نضال مدجج بالحديد ،
 مخرج بالدم ، في ملحمة كملاحم الاساطير ..
 ترى ، أمن الاشتغال بالسياسة ، ان ينظر الاديب
 ويعرف ، ويعقل ويشعر ، وينفعل ويتحمس ، ثم يرسل

صحيحة ، او يصعد زفرة ، او يهتف لاحد المعسكرين ؟
 اكبر الظن ان « هؤلاء » الادباء انما ينعون على
 « ذلك » الاديب ، اشتغاله « هكذا » بالسياسة ،
 لأنهم في اقصى ضائرتهم لا يملكون « هم » ان يهتفوا
 للمعسكر الآخر . فنحن لم نرهم يوماً يأخذ بعضهم على
 بعض ، انهماكه في سياسة ما : سياسة تعيين المخاتير ،
 بله النواطير .

والآن لن احدثكم عن القرآن واثره في بناء
 العالم العربي ، ولا عن شكسبير واثره في بناء
 التمدن الانكلوسكسوني ، ولا عن دانتي واثره في
 بناء الوحدة الايطالية ، الى آخر حلقات السلسلة .
 فهذا الاثر قد يختلف في نسبته الى العوامل الاخرى ،
 بعد مقارنته بها ، لكن لا جدال فيه ، بحد ذاته .
 سوى انني لا اجد ندحة عن الاشارة هنا ، الى هذه

الظاهرة العجيبة حقاً : ان الكتاب العربي المبين ،
والطرف الانكليزية الخالدة ، والتحفة الايطالية
الرائعة ، لمن حياة المجتمع وسياسة العصر في
الصميم .. وهل كان الاديب او الفنان الا رجلاً
من امة ، وعضواً في مجتمع — كعقرب الساعة على
الاكثر ؟ انه يتكلم بلفتنا ، ويستمد من بيئتنا ،
ويعيش في جوتنا : هو ابن جغرافيته وتاريخه . هو
ياخذ فكيف لا يعطي ؟ . على ان كل محاولة يأتي بها ،
كي ينسلخ من هذه الاصول الحية ، خطوة يخطوها
نحو الانتحار ، انتحاره هو ، وتظل الحياة حياة —
متطورة متبدلة متحولة . وما ادرانا ؟ فلعل هذا
ما يخشاه اكثر ادبائنا ، اذا حملوا على الانغماس في
الحياة العامة — والحياة على اطلاقها — او بالاكل ، على
الاتصال المباشر بها : يخشون تطور تلك الحياة

وتبدلها وتحولها ، وان يضطروا الى اكتناه هذا
 التطور ، او مسيرته ، او توجيهه ، وفي الامر
 ما فيه من جهد — وخسارة ، أو في ما يقال في
 وصفهما ، انهم في غنى عنهما ، وكفى الله المؤمنين
 القتال . هكذا تنقطع الصلة بين الادب والحياة ،
 وتبعد الشقة بين الاديب والمجتمع . لكن ينتهي
 الامر بأن يستغني المجتمع عن ادب لا يجد ذاته فيه ،
 اذ تلهو الامة او تكتفي بأدائها العامية — مثلاً .

ان في المجتمع حياة زاهرة لا تُعدّ حياة اي
 فرد ، مهما يكن عظيماً ، بأزائها شيئاً مذكوراً . فكيف
 اذا كان هذا الفرد ، ولا هم له الا ان يعيش متقلصاً
 منكماشاً في نفسه ؟ وللهما هير التي تتعذب وتكدح
 مطامح وآمال . ولها امثلة عليا تتوق اليها ، وتتطلع
 نحوها ، وتيمم شطرها . قد يكون ذلك كله غامضاً

في سرائرها ، موزعاً في ضائرها ، يتلجلج في
 الافئدة ، او تُتمتم به الالسن ، فهو ينتظر من يبين
 عنه ، ويبرزه في صورته المثلى .. فاذا لم يوجد هذا
 الاديب او الفنان ، فهذا الاديب او الفنان يكون
 غير موجود ، لكن المجتمع وحياته يظلان في
 الوجود .. في دنيا العمل والكدح هذه ، في دنيا
 الامل والفرح هذه ..

٢ تلميذ مجتهد

خرجت من البيت ، هذا الصباح ، مبكراً
على غير عادة . وكنتُ أفكر في حديثي الاسبوعي ،
تفكير أمريء لا يترك لغده ما يجب أن يصنعه
في يومه ، لكن ليس يُرجى منه تقديم العمل ،
فهو أبداً على التُخوم ، بين تسويف وتسليف .
وكانت الخواطر من كل شكلٍ وزِيٍّ ، تردحم في
بالي ، متكاثرة عليّ كما تكاثرت ، في الأمثال ،
على خراشِ ظباؤه ، زعموا أنه لم يدر أخيراً ما
يصيد ، فرجع صفر الوطاب ، خالي الجراب .
ولله ما أكثر — وبوسعنا اذا انحرفت وجهة

النظر بعض الشيء ، أن نقول أيضاً في السياق نفسه : ما أقلّ — المواضع التي يصحّ التحدّث عنها ، وإلا فالتفكير فيها فقط ، منذ طرأ على حياتنا هذا الحادث الذي نسميه « الاستقلال » فصرنا به وكل قديم عندنا كأنه جديد لم يسبق به عهد ، أو لم يضرب على غرار . حتى الكلمات ، إذا لم نقل : تغيّر معناها ، فقد تغيّر صداها ، كأنما تبدل الجو الذي ترنّ ، بل تترجّع فيه .

.. وهكذا لم اخط بضع خطوات أو لم اكد ، في ذلك الزقاق الذي ما كنت ، لكثرة ما عرفته وألفته ، أخشى منه أيّة مفاجأة أو أي شذوذ ، حتى أراني عجباً من العجب . فكأنّ الزقاق الصغير المتواضع يخرج اليوم من طوره ، ويجاوز حده .. ولقد سرت في طريقي بعد ذلك حيناً ، لا أفكر

في موضوع من تلك المواضع التي كانت تردحهم ،
 الساعة ، في ذهني ، وتملك عليّ لبي ، إلا قام هذا
 المشهد بيني وبينها ، فاختلط بها كالأخيلة المتداخلة ..
 ثم وجدتني بغته أحتّ السير ، وكأني خلف خواطري
 أو الأطباء السوانح — لا أدري — أعدو عدواً ..
 وماذا رأيت ؟ لعل ما رأيته لم يكن مما يدهش
 الى هذا الحد ، ولعل نفسي كانت ذلك الصباح
 متفرغة مستعدة للدهشة ؟ والحق اني ، منذ اخذت
 اقص عليكم قصتي ، اخالني قد عدت من دهشتي
 الاولى ، فلا تنتظروا ان افجأكم بمثل ما فجأني به
 زقاي الصغير المتواضع الذي حاول مرة ، اقناعي
 بانه يستطيع هو ايضاً الخروج من طوره ، وبجائزة
 حده :

صبي في زهاء الثانية عشرة ، يحمل على ظهره

كيساً فيه ، على ما بدا لي ، بضعة ارطال من مادة
لم تثر اهتمامي او فضولي ، اول وهلة . وهو ممسكُ
الكيس باحدى يديه ، يمشي على مهل ، ويقف أنا
بعد آن ، ثم يعود الى سيره الوئيد . حاذيت الصبي ،
فاذا يده اليسرى مشغولة بكتاب ، كل القرائن
تدل على انه كتاب مدرسي في القراءة الابتدائية ،
يقرأ فيه متهججاً بصوت خافت . . يمكن ان انسى
بطبيب خاطر ، كل تفاصيل الحكاية ، لكن لا احسبني
انسى ، ولا اريد ان انسى ، انعكاف الصبي على درسه
واستغراقه فيه ، كأن لا شيء مما حوله يعنيه ، حتى
ولا ذلك الكيس الثقيل على ظهره .

رافقت الصبي خطى معدودة ، اقف اذا وقف ،
وأمشي اذا مشى . ولم يكن زري اللباس ، ولا ضعيف

البنية — حسن الحظ — فيبعث منظره في نفسي
 رحمة او اشفاقاً او ما بمعناها من الالفاظ الدامعة ، لا .
 سوى انني تساءلت على الماشي : « ترى ، ما شأن هذا
 التلميذ المجتهد ، والمجتهد في شروط غير معروفة او
 مألوفة ؟ لعله يشتغل للمدرسة التي يطلب فيها العلم ؟
 او لعله ولعله ؟ . » ثم استقر رأيي اخيراً على انه
 — لا اكثر ولا اقل — ابن عائلة يحمل الى اهله
 حصتهم من الاعاشة .. واذا بالصبي يغيب عن نظري
 في طريق لا تنفذ ..

٣ ابن الجيران ياخذ الشهادة

استيقظت هذا الصباح ، على موسيقى تضج
في اذني ، وكأنها — للقرب — تنفجر من جوارحي .
موسيقى وايّ موسيقى انحاسية ، ولسوء الطالع
كاملة الآلات والاصوات ، ترسل في « نشاز »
كالمتعمد ، خليطاً من انغام تتردد بين قعقة السلاح
وزغردة الاعراس . خيل الي ، في وهل النوم ،
انه ليس سوى حلم مرعب ينتهي معي الآن ، في
برزخ الوعي واللاوعي ، بمثل ما يُنجم به اغلب
تلاحين السنفونيا في الغرب ، او كما تقوم القيامة
عندنا في الشرق ، يوم ينفخ في الصور .

وما الخبر ؟ . لقد استيقظ الحي بأسره ، وهو
يتثاب متسائلاً : ما الخبر ؟ . وطفق هذا السؤال يطّير
حول منازل الجيران ، بين طبقة وطبقة ، وطنف
وطنف ، ونافذة ونافذة ، يميناً ويساراً ، صعداً وانحداراً ،
كأسراب السنونو الحائرة لا تفتأ تبحث عن شيء
تتوهمه ، عن شيء لا تجده .. ثم تضخم السؤال
وتعظم : كان مهمة ، فصار دمدمة . واذ به أخيراً
ينازع الموسيقى الصاخبة سلطان الاثير . وبغثة تغطت
سطوح الدور بنساء ورجال ، وازدحم الزقاق الضيق
بنات وصبيان ، وهم يتطلعون جميعاً الى جنيئة
ابي مصطفى ، كي يروا الموسيقى ويسمعوا الخبر !
— اميلي ! . اين اميلي ؟ .

كذلك في بيتنا ، لم تستطع الخادم الصغيرة
صبراً ، فلما آتست منا غفلة ، انسلت كالشعرة من

العجين ، ملبية داعي الحلي الذي اخذت تتجاوب فيه ، هذه المرة ، ويا للعجب ! اصدااء العيد ، دون ان يرتدي حلتها البهيجة الزي والالوان .

وعادت اميلي وفي عينيها الخامدتين بارقة ظفر لم نعهدها فيهما من قبل : لقد جاءتنا بالخبر اليقين . وهتفت قائلة : « ابن الجيران اخذ الشهادة ! » ثم ما لبثت ان اعادت هذه الكلمة السحرية : « الشهادة » وقد انطفا في عينيها بريق الظفر ، ولم يبق فيها الا الرماد من تلك الدهشة الاصيلية في نفسها ، المتسائلة عن ذلك الشيء الذي لا تعرفه ، فليست تفهم كيف يعيدون من اجله كهذا العيد .

ما اذنانا يا اختي ؟ لعل ابا مصطفى جارنا الأمي ، اراد في عصر العلم هذا ، ان يشار من الأمية ، فلم يجد الا هذا .. وقديماً عهد البطل

العجوز في مسرحية كورناي ، وقد كَلَّت يده عن حمل السيف ، الى ابنه الفتى لذريق ، بأن يشار لشرفه ، ويبارز عنه الكونت الفظ الذي لم يوقر شيخوخته .. لكن هذه حكاية اخرى ، كما يقولون .

واجتزت في طريقي ، ذلك الصباح ، بمدرسة يُمتحن فيها الطالبون والطالبات ، لمنح الشهادات . وكأنني ذهبت ثمة ألتمسُ تكملة لقصتنا ، قصة ابي مصطفى ، فلا نتركها معلقة بين الارض والسماء . وكان اول من وقع عليه نظري ، تاجر من كبار التجار يغدو ويروح في غرف المدرسة واروقتها ، اشعث أغبر ، يتصبب العرق من جبينه ، وهو متأبط رزمة من الكتب والدفاتر ، ليس يهمه شيء ، ولا يلوي على مخلوق . وما إن قلت لنفسي : « ماذا ؟

أتراه ، يتقدم لفحص البكالوريا ؟ » ثم يبدو لي انه قد يكون بالضد ، من الفاحصين ، حتى رأيتة يسعى نحوي ، وتنكشف جثته الضخمة عن صبية تظفر وراءه ، ويعرفني الى ابنته قائلاً ، بين مفتخر ومعتذر :

— انا هكذا منذ ايام !

وركبت الترام . وكان حافلاً بالفتيان والفتيات المنصرفين من الامتحان . واذا بأحدهم في يده دفتر ، ينظر الى بعض رفاقه نظرة ذات معنى ، ثم يبدي اشارة من يهيم بتمزيق الدفتر ، وهو يتسم ابتسامة تشفي ، وكأن لسان حاله يقول : « اف ! انتهينا ! » فأراه بعين الخيال يسافر سفرة بعيدة يلتقي في آخرها والخدام الصغيرة التي تركناها منذ

برهة في البيت ، تتسأل عن الشيء السحري الذي
لا تعرفه ، فليست تفهم كيف يعيدون من اجله
كهذا العيد .

ورجعت مساء الى البيت : الموسيقى في جنيّة
ابي مصطفى لا تريم ، والحلي كله في عيد
لا يحول .. قيل لي ان العزف والفرح لم ينقطعا النهار
بطوله ، ما خلا فترات قصيرة .. لكن ما كدت
اجلس حتى سمعت « الجوقة » تختم بالنشيد اللبناني ،
فيصفق الحاضرون ، كما يحدث في جميع الحفلات
التي تحترم ذاتها .

٤ الكسل والحرية

يعجبني في تعريف الحرية قول بعضهم : « الحرية هي أن لا تعمل ما لست تريد أن تعمله . » والفرق واضح بينه وبين ذلك التعريف المشهور المأثور وهو : « الحرية ان تعمل ما تريد . . الخ . »

لقد محص أهل النظر هذا التعريف الأخير ، فثبت عندهم ان الحقيقة التي ينطوي عليها ضئيلة جداً ، وانها ترداد ضؤولة على كثر الازمنة وتطور الاحوال ، بغلبة الضرورات الاجتماعية القاهرة التي لا مفر منها ، والتي يتسع نطاقها تدريجاً ، إلى أن تستغرق كل شيء ، فلا يبقى من التعريف سوى أثر

بعد عين ، اذ تتم « غيبوبة » الفرد في المجموع ،
والى الدولة المصير .

هذا التعريف المأثور ، وهو : « الحرية ان
تعمل ما تريد .. » كثير الدعوى ، يكاد لا يفي
بجزء مما يعد . اما التعريف الآخر ، وهو : « الحرية
ان لا تعمل ما لست تريد .. » فهو اكثر تواضعاً .
ولعل اعجابي به ناشىء عن ولوعي الشديد بلا
(النافية) في اغلب الشؤون ، فهي اكبر معوان
على عدم الاضطلاع بعظائم الامور وصفائرها ، وعلى
التخلص من المسؤوليات الرفيعة والحسيسة ، وبكلمة
واحدة : على قلة الحركة . بل لم لا نسمي الاشياء
باسمائها ، فنقول انها خير معوان على الكسل ؟
ليس من همنا أن نبين هنا فضل الكسل ، او
ان نشيد بذكره ، مخافة ان تسوء سمعتنا لدى

القاصي والداني . على ان من الواجب احترام بعض
المبادئ المقررة التي عاشت الانسانية عليها قروناً
متطاولة ، ومن الراجح انها لا تفكر في تبديلها ،
ولو فكرت في ذلك لما استطاعت اليه سبيلاً . لكن
ليؤذن لي ، وقد فُتح الباب على مصراعيه ، ان
أتساءل على الماشي ، عن ذلك العبقرى الذي سبق
الى تعليم البشر أن الكسل رذيلة لا ينبغي لهم ان
يتخلقوا بها ، فالتاريخ لم يذكر لنا اسمه ، كما
أغفل اسما كثير من المخترعين الذين تقدموا التاريخ .
وارجح ان ذلك المعلم الاول لم يكن عاملاً يكدر
ليه ونهاره ، وراء كفاف عيشه ، او لقمة يتبلغ
بها ، فليس لأمثال هذا المسكين ، من فراغ البال
وطمأنينة النفس وراحة الجسد ، ما يتيح لهم

« اختراع » الفضائل ، والدعوة اليها ، والسعي في نشرها .

ويبدو لنا ان ذلك المعلم العبقري كان ، على الضد ، من ذوي النفوذ والسلطان الذين وُجدوا منذ وجدت الجماعات الانسانية ، وفيها الاقوياء والضعفاء ، والاذكياء والبلداء ، أو اصحاب الأمر والنهي في جانب ، واصحاب « السمع والطاعة » في الجانب الآخر . كان السادة في العصور الهمجية يسوقون الارقاء الى العمل لاجلهم ، ضرباً بالسياط . ثم ترقى المجتمع الانساني ، ولم يبق للسوط موضع ، فاخترعت « الفضائل » الانسانية ، وكأنها سياط من نوع جديد ، لكن للغاية نفسها . وقد دلّ هذا الاختراع الاخير على انه اعظم براعة ، واشد نكاية ، من السياط الاولى ، لجمعه بين الدنيا والآخرة ..

على اننا لو رجعنا الى اصل الخليفة ، يوم كان
 آدم في الجنة ، يسرح ويمرح ، وقد آتاه الله رزقه
 رغداً ، لعلمنا ان ابا البشر كان عهد ذلك متحلياً بفضيلة
 الكسل ، اكثر منه بأية فضيلة غيرها . لكن ،
 سماحه الله ! فلأمر ما غضب — سبحانه — عليه ،
 فأخرجه من جنته ، وقضى عليه أن يأكل خبزه
 بعرق جبينه ، وكد يمينه . فكان العمل قصاص له
 كالحكم بالاشغال الشاقة المؤبدة ، عليه وعلى ذريته
 من بعده ، الى يوم الدين ..

ولكن مالنا ولهذا ؟ فأننا لم اقصد الكسل اذ
 اظهرت سروري بطرافة التعريف الذي عن بعضهم
 ان يطلقه على الحرية الغالية ، في قوله : « الحرية
 هي ان لا تعمل ما لست تريد ان تعمله . » انما
 عنيت تلك الامور — والله ما اكثرها في حياتنا —

التي تضطر المرء الى اتباعها ، تقاليدٌ لا معنى لها ،
وتكاليف لا طائل تحتها . واعتقد ان ما يؤد احدنا
ان لا يعمل له لو ترك له الخيار ، ولم تكرهه عليه
التقاليد والتكاليف ، اكثر جداً مما يؤثر ان يعمل ،
رغبة فيه وحرصاً عليه . فهو بعبارة صريحة ، يفضل
على حرية العمل ، حرية « عدم العمل » وانها لعمرى
الحرية المثلى !

قال احد كتّاب القرن الثامن عشر الفرنسي :
« الكسل هو الفلسفة .. » واطن ان هذا ما اراده
احد أقاربي الشيوخ ، اذ قال عني مذ كنت صبياً :
« عمر فيلسوف .. » قالها وعلى ثغره ابتسامة إشفاق
وددت ، يجدع انف الفلسفة ، لو انساها ! .

٥ اليتيم العربي

ليؤذن لي أن اصارحكم في مسألة : لقد شعرت
بالخطر المداهم ، منذ جاءني على حين غرة ، لبضعة
ايام خلت ، هؤلاء الملائ الصالح من الذين وفروا
عنايتهم السمحة ، وجهودهم المتصلة ، على ما يسمونه
« اليتيم العربي » كأن هذا المسكين صار علماً من
الاعلام ، او مؤسسة عامة . احسست بالخطر المداهم ،
مذ اخذوا يحددوني عن مآثر الخير وصنائع المعروف
التي يحققونها . وادركت بالبداهة انهم — لسوء حظي —
لم يقصدوني كي اتبرع لهم بشيء من المال ، فأساهم
في مشروعهم الجليل ، بما لا تصح المساهمة بسواه .

ولعنت شهرتي في الناس بقلة ذات اليد ، وفهمت
 معنى المثل العامي السائر : « صيت غني ، ولا صيت
 فقر ! » قلت في سرّي : « نحن الكتاب والشعراء
 (او من يدعونهم هكذا) اذا أصبنا بالعي وجود
 الخاطر وعدم مؤاتاة البيان ، محرومون حتى من ان
 نفدي انفسنا بشيء غير الكلام ! » ولعل هذا في
 الظرف الخاص العصيب الذي وجدتي حينذاك فيه ،
 اشد انواع الحرمان . ولا اكتمكم اني حاولت بعض
 المحاولة ، ان افدي نفسي بشيء غير الكلام . لكن
 يظهر ان اللجنة الكريمة لم تكن بحاجة إلا لمن يحدثكم ،
 فردت سؤلي ، ضاحكة بالاجماع . وها انا ذا
 ضحيتكم ، هذا المساء .

اليتم العربي ! . يذهب الفكر ، اول وهلة ، حينما
 يقع النظر على هاتين الكلمتين ، الى العربي الاكبر ،

ذلك الذي عاش يتيماً ، وما زال منذ ثلاثة عشر
قرناً ، يُظَلُّ التاريخ . وانه لمن ايسر الامور ان
نتحدث عنه في هذا المقام ، فنعزي بذكره وذكراه
الدنيا قاطبة . لكن ان احدثكم عنه ، لاننا لم
نجتمع هنا ، على ظني ، للتعزية ولا للتسلية ولا
لتمويه الحقائق الموجهة . فان ذكرى النبي العربي
قادرة على ان تهدينا سواء السبيل ، وان تحفزنا إلى
العمل الطيب في اطوار شتى ، وان تهيب بنا الى
الاتعاظ في مواطن عديدة . لكنها بحد ذاتها ،
لا تطعم جائعاً ، ولا تكسو عرياناً ، ولا تؤوي
شريداً . وليس اليتيم بحاجة الى ما يعزيه ويسليه عما
هو فيه ، بقدر ما هو بحاجة الى ما ينسيه انه يتيم ،
قولاً وعملاً . اخاف ان يكون من ذلك ، على

الضد ، تعزية لنا نحن ، وتسلية وتمويه على انفسنا ،
فنحسب اخيراً اننا ، اذا ما ذكرنا محمداً ويتممه
وعظمته في التاريخ ، فقد قمنا نحو « اليتيم العادي »
ببعض واجبنا او بواجبنا كله . وماذا بعد هذا إلا
ان يقتني كل غني مترف يتيمة ، كما تُقتنى التحف
الشمينة او النادرة في البيت ؟ وماذا بعد هذا إلا
ان يصبح اليتيم العربي كالمؤسسة العامة الوطنية ،
أو كالمثال من التماثيل ، او كالنصب من الانصاب ،
أو كالرمز من الرموز ، فيتخذ حجة ، وينتهاز فرصة
يضمن الدهر بمثلها ، لعقد الحفلات ، وتنظيم المهرجانات ،
كأنما الدنيا ومن عليها في عيد . ثم تُنشد القصائد
وتتلى الخطب ، فلا يكون همّ القائلين والسامعين على
السواء — والله ما أروعها مباراة ! — ألا من أجاد
ممن لم يُجد ، ومن « احسن » ممن لم يحسن — بالطبع

نظماً ونثراً ..

كل شيء ولا هذا ١ . أنا أوثر إذا ، وانتم ولا
 ريب تؤثرون ، ان أحدثكم مثلاً عن « الدرة
 اليتيمة » لامام الكتاب ابن المقفع ، او عن « يتيمة
 الدهر » لامام اللغويين الثعالبي .. بل لماذا لا نذهب
 الى ابعد ، فنتحدث عن « اليتيم الاصلي » ايينا آدم
 الذي لم يُخلق من اب ولا أم ، فكأنه ولد يتيماً
 ما كان ولن يكون أصل في اليتيم منه . ثم اتساءل
 واياكم : « هل احسن الاب الاول ذل اليتيم وحرمانه ؟
 وهل أنشئت لتعزيته وتسليته والترفيه عنه ، جمعية
 من الجمعيات ؟ » لكن لن أحدثكم عن شيء من
 هذا القبيل ، لسبب بسيط هو انه قد يكون
 خروجاً عن الموضوع . واحب ، مرة واحدة على
 الاقل ، ان اتناول البحث الذي يقتضيه المقام ،

وجاهاً في غير ~~مرغوة~~ غة ، وحسبنا الله وهو نعم المعين .
 ان العناية بشأن اليتيم مادة وروحاً ، تغذية
 وتربية ، تتصل اتصالاً وثيقاً ، بالمبادئ الادبية او
 الاخلاقية التي يزُنُّ بها مجتمعنا الحاضر ، مفاخراً
 مباهاياً . وفي رأس تلك المبادئ مبدأ الخير او
 الاحسان او المعروف — اسماً متعددة لاسم لا يتعدد .
 لقد أكبَّ الحكماء والمفكرون على مبدأ الخير
 هذا ، يحللونه ويتأولونه ، أو يشرحونه ويشرحونه .
 ولا تنسوا ان البشرية هي اليوم ، من أطوارها في
 طور التشريح والتحليل ، أو المراوغة والمداورة .
 فقالوا بادي . بد : « يجب أن نفرق بين العدل أو
 مبدأ العدل وبين الخير والاحسان . فانا عادل ، إذا
 كنت لا انتزع من سواي ما يملكه ، ولا أمنع
 عنه ما هو حق له ، ولا انقض عهودي الخطية أو

الشفهية أو الضمنية معه ، وأنا خير أو فاعل خير أو صاحب معروف ، إذا جئت طواعية ، من تلقاء ذاتي ، أعمل على إسعاد الغير ، سواء أبتخفيف آلامهم الجسدية أو النفسية مما لا تقع تبعته علي ، أم بتوفير ملذات الجسد والروح والفكر مما لا أكون مديناً لهم به . فالعدل إذاً هو مجموع الأفعال الواجبة التي لا بُدَّ من إتيانها ، والخير أو الإحسان هو مجموع الأفعال المجانية ، المتطوع لها ، المتبرع بها ، والتي يكون المرء في حلٍّ من انجازها .

لكن بعض الحكماء لم يقتنعوا بالتفريق بين مبدأي العدل والخير . فهم يرجعون مبدأ الإحسان نفسه إلى العدل ، قائلين إن الأول هو مظهر من مظاهر الآخر ليس إلا ، بمعنى أن أعمال الخير وصنائع المعروف ليست سوى إعادة الحق إلى نصابه . فالغني

الذي « يناول » فقيراً ، ليس يعطيه ، إنما يردّ إليه حقه أو بعض حقه .

سأ كفيكم مونة الأخذ والرد ، والكر والفر ، حول هذه القضية وغيرها من القضايا الأخلاقية والاجتماعية التي لو لم تكن معلقة أو مختلفاً فيها ، لأمست البشرية في غنى عن جهرة من الحكماء والفلاسفة . كذلك لن أحدثكم بكلمة عن هؤلاء الذين يقولون لنا ، ضارين صفحاً عن مبدأ العدل الصرف ، وعن مبدأ الخير الصرف ، وعن ذلك المزيج الكيميائي من كلا المبدئين .. يقولون لنا متصوفين : « ما لكم ولهذه المشاكل ، وحلولها التي لا تحل مشكلاً ؟ أحبوا الفقير - واليتيم ، والسائل والمحروم .. أحبوا هؤلاء جميعاً في ذات الله ، فالله وحده يحب أن تحبوه .. » هؤلاء المتصوفة لا بأس

بأن نرفعهم هم أيضاً إلى مصاف أولئك الحكماء.
والفلاسفة الذين يصح أن تستغني عنهم البشرية ، أو
يُعهد إليهم بعمل آخر ..

لكن هنالك حقيقة لا مندوحة لنا عن الإشارة
إليها ، وهي ان التوكل على « مروءة » أهل الخير
والمعروف لم يقدم النوع الإنساني كثيراً نحو الكمال
الذي ننشده أو نسير نحوه . بل ان قانوناً واحداً
يُسن ويُنفذ ، لأفضل من كل الخطب والمواظ
والشروح والحلول التي ينوء الضمير الإنساني بعبئها
الثقيل ، منذ قام في الدنيا أول حكيم ، أو أول
واعظ ، أو أول داعٍ إلى الخير .

تُرى ، متى نلج باب المدينة الفاضلة التي لا
يلهجون فيها بذكر اليتيم — حيث لا يتيم ؟

في السَّاحَةِ

١ تعريف الامة او التعريف بها

منذ ستة اسابيع ، والاحاديث الى الشباب
تتري من هذه المحطة 'متصلة' مساء كل خميس .
ولقد كان الغرض الذي استهدفه المحدثون في مختلف
بحوثهم ، ولم يزل ، تعويد الشباب التفكير السليم
لاكتناء حقائق الاشياء ، اكثر منه الدعوة والنصيحة
والموعظة ، اعتقاد ان التوجيه الحق للشباب المثقف
هو ثمة ، نحو المعرفة الصحيحة والفتنة الرشيدة .
والعمري متى تطرح المسائل كما ينبغي ، وتفهم
المشاكل على علاقاتها وفي حقيقتها ، مع جميع ما يلابسها

من حالات ، ويلازمها من مناسبات ، فقد سلكنا
اقصر السبل وآمنها ، بل السبيل الوحيدة الى
اجوبتها وحلولها . وإلا فنحن نتخبط في مكاننا ،
دون ان نتقدم خطوة الى أمام .

ذلك ان ما يُطلب منا ليس الجواب عن مسائل
حرف نظرية لا تبني عليها اية نتيجة عملية ، ولا
حل مشاكل مجردة كالتي يتلها الاولاد بمطارحتها فيما
بينهم ، وهي لنفسها تُراد .. كلا . ان مسائلنا
ومشاكلنا حيوية ماسة لازمة ، لا مندوحة عن
مواجهتها ، كما انه لا مندوحة عن مواجهة الحاجة الى
الخبز مثلاً . وكما انه يجب ان يوجد الخبز لكفاية
الجوع الذي يحسه الانسان ، فكذلك يجب ان يجاب
عن تلك المسائل ، وان تحل تلك المشاكل ، او
بالاقل أن تقترح الاجوبة والحلول الحسنة الملائمة .

ولا تخدعنكم كلمة « الاقتراح » فتقولوا اننا نبقي
هكذا في دائرة النظريات المجردة . لا ، فكل جواب
حسن ملائم ، لاية مسألة فهمت كما هي ، في حقيقتها
وعلى علائها ، مع جميع ما يلابسها من حالات ،
ويلازمها من مناسبات ، يحمل في ذاته اندفاعاً إلى
التحقيق ، او طاقة عملية لا شبهة فيها . لكن حذار
من الوعاظ المرشدين الناصحين الذين يتوارون وراء
ستار كثيف من المفهومات التي لا يفهمونها ، أو
المدلولات التي لا تدل على شيء ، والذين يتخلفون
خلف اصدااء مرجعة من الالفاظ الطنانة ، والعبارات
الرنانة .. فهو لا نفر من الخلق لا يواجهون المشاكل
ولا يواجهون نحو حلها . وهل تملك ان توجه امرأ
او جماعة ، شطر غاية من الغايات ، وانت تولى
هذه الغاية ظهرك ، او تسير في الجهة المعاكسة ؟

او هل تملك ان تشير الى هدف من الأهداف ،
وانت لا تتبينه ولا تعينه ، فكيف لك بان تصيب
المرمى ؟

ذاك أولاً .

وثانياً : ان إدارة هذه المحطة لم يقنعها أن تعمل
على توجيه الشباب المثقف في سبيل التفكير
الصحيح ، شطر حقائق الأمور وحسب ، بل ارتأت
فوق هذا ، ان تعودهم التفكير المنظم المطرد
الشامل . ان حياة الفرد في المجموع ، وحياة المجموع
في العالم ، وما يثار حولهما من مسائل ، ويعرض
لهما من مشاكل ، إن هي إلا أجزاء من كل :
عناصر في جسم مركب ، تتمازج وتتفاعل فيما بينها .
فلا مظهر من مظاهر النشاط في ميدان من ميادين
الحياة الفردية أو العامة ، إلا وله أثر أو رد فعل

في سائر المظاهر ، في سائر الميادين : أثر أو ردّ فعل
لا يبطني ولا يهمل . وكذلك أيضاً ، لا مراة ،
مظاهر « عدم النشاط » الذي لا يصح ان يطرح
من الحساب ..

لهذا ارتأت إدارة المحطة دعوة نفر من أهل
الرأي وأرباب الاختصاص ، إلى بحث موضوعات
عدّة ، لكن متفرعة عن موضوع أساسي شامل
شمول الحياة التي لا تعرف التجزئة أو القطيعة ،
والتي لا شيء فيها يضيع ، فلن يضير هذا الشيء أننا
أغفلناه أو أهملناه ، أو عمينا أو تعامينا عنه . عسى
أن تكون المحاضرات العشر التي سوف يستغرقها
الموضوع ، كالفصول المتألّفة في كتاب ، أو كالحلقات
المفرغة في سلسلة ، فنحمد مغبة هذا المسعى وأثره
في الميدان الثقافي ، ثم في سائر الميادين .

الموضوع العام هو « بناء الأمة » . ومن الطبيعي ان يُبدأ بتعريف هذا المدلول — أو الواقع الراهن — الذي يسمونه « الأمة » قبل ان يُؤتى على تفصيل اطواره ، ومظاهر نشاطه . فلا شيء أوجب لاكتناه الأمور وسلامة الاستنتاج ، من تعريف صحيح ، « جامع مانع » كما يقولون في تعريف « التعريف » . واكثر المنازعات إنما تنشأ عن الاختلاف في فهم الألفاظ التي نستعملها جميعاً ، لكن لا ندرك مدلولاتها على صورة واحدة ، واضحة الخطوط والألوان . فكأن الكلم محرفة عن مواضعها والمعاني غريبة عن ذاتها . وتبدأ الصعوبة أو تعظم ، حينما يُكلف الذهن عناء الانتقال من المدركات الفردية والحسية ، إلى المدركات الاجتماعية والمعنوية . فليس من العسير على امرئ ان يفقه ذاته بوصفه شخصاً

مادياً منفرداً ، وان يثبت تصرفاته في دائرتها المباشرة ،
 لكن العسير ان يفقه المرء تلك الذات المعنوية التي
 نسميها الجماعة أو الأمة ، وان تقوم في ذهنه — إذا قيل
 له انه عنصر في الجسم المركب — صورة واضحة عن
 حقيقة هذا الجسم ، وعن نوع علاقاته به . والعسير
 ايضاً ان يتجاوز نظره في اعماله وشؤونه ، ذلك النطاق
 الضيق الذي يحسه مباشرة ، الى ما هو اوسع فاوسع ،
 كالدايرة او الدوائر التي يحدثها حجر يُقذف به في
 حوض . والى ان يعرف الفرد هذا كله ، والى ان
 تصير هذه المعرفة شعوراً طوعياً دقيقاً ، يُحتاج إلى
 ثقافة ورياضة يدعمها أبونا التاريخ . ونحسب ان هذا
 هو ما يعنونه بالوعي القومي الصحيح .

يعتبر علماء الشرع الجماعات المنظمة ، كالشعب
 والامة والشركات والمؤسسات ، اشخاصاً معنوية او

تصورية او اعتبارية ، بحجة ان العناصر التي تؤلفها
 (وهم الافراد) لا تربط فيما بينها عرى مادية
 ملموسة ، بل عرى ذهنية غير محسوسة . والواقع
 ان للاشخاص المعنويين وجوداً راهناً حقيقياً ، وان
 لهم اغراضاً يستهدفونها ويعملون على بلوغها ، بواسطة
 اعضاء او « مصالح » يناط بها هذا العمل ، وهي
 مهياة ومعدة ومعينة له . فالامة ، كأفرادها ، كائن
 طبيعي لازم . ومما يرجح صحة ذلك المذهب ايضاً
 ان ثمة اشياء تُنسب الى الجماعة او الامة ، هي في
 الاصل مما ينسب الى الأفراد ، فيقال : روح
 الامة ، او ثقافتها ، او نشاطها ، كما يقال : روح
 الفرد ، او ثقافته ، او نشاطه .

والآن ماهي ، بل اؤثر ان اقول : « مَنْ »

هي الامة ؟

الامة جماعة من افراد يأترون لسلطة واحدة ،
 ويخضعون لشرائع واحدة ، تتألف منهم دولة هي
 مظهرهم السياسي بين الامم ، ويقوم بعبء السلطة
 فيهم عضو من الجسم المركب يطلق عليه اسم
 « الحكومة » .

ذلك تعريف الامة من أقرب سبيل ، بعد ان
 تصير امة لا اختلاف فيها ، ولا خلاف حولها . أما
 الامة التي لما توجد تماماً ، ويعوزها بعض الشروط
 القليلة التي ينطوي عليها هذا التعريف الشرعي ،
 وهي ما زالت في مستهل حياتها السياسية ووعيها
 القومي ، فقد تطالبنا بتعريف آخر يكون اكثر
 شمولاً وابعد غوراً ، على السواء — يتناول مبادئ
 الامور واصولها ، كما يُبدأ بالقصة من اولها ، وليس

من آخرها ..

والذي نراه ان اصح تعريف للامة ، للأمم على
اطلاقها وللامة الناشئة بنوع خاص ، هو هذا
التعريف الجامع المانع ، على قول المناطقة : « الامة
جماعة ثابتة من الناس ، مؤلفة تاريخياً ، ذات لغة
مشتركة ، وارض مشتركة ، وحياة اقتصادية
مشتركة ، وتكوين روحي مشترك يجد عبارته في
الثقافة المشتركة . »

ويضيف صاحب هذا التعريف : « ان كل سمة
من السمات التي ذكرناها لا تكفي ، اذا أخذت على
حدها ، لتعريف الامة . بل نذهب الى ابعد من
ذلك ، فنقول : يكفي ان تنعدم سمة واحدة منها ،
كي تنقطع الامة عن كونها امة . »
ومما يسترعي الانتباه في هذا التعريف الذي

اعتمدناه ، ان لا إشارة فيه ، أدنى إشارة ، إلى
 تلك السِمة العلمية الكاذبة التي يسميها النازي
 « وحدة الدم أو العرق » جاعلين منها أساس بناء
 الأمة . فقد أثبت العلم بطلان هذه النظرية العرقية
 التي تدّعي للعلم كذباً وخديعة وجراً لمغرم ، على
 نحو ما كان يدّعي مولى من الموالي لاحدى قبائل
 العرب ، فيهجيه بذلك الشعراء ويميّبون عليه نسبته
 المكذوبة . وليس في العالم اليوم أمة متمدنة أو في
 سبيل التمدين ، يصح ان تدّعي لنفسها وحدة الدم
 والعرق ، أو صفاهما ، كما انه من الضلال الاعتقاد
 بإمكان التوصل الى شيء من هذا ، بضرب أو
 بضروب من الانتخاب الصناعي المنظم ، يُحاول به
 عجن المادة الانسانية الحيّة ، على ما يزين الهوى
 ويصور الوهم .

ولعل الالمان أنفسهم من أبعد الشعوب الاوربية
عن وحدة العرق المزعومة ، أو صفاء الدم
المكذوب . لناخذ مثلاً : البروسيين الذين يدعون
تجسد المزايا الالمانية فيهم على وجهها الاكمل ،
فاذا نرى ؟

يحدثنا التاريخ انهم كانوا يُعرفون ، في عهدهم
البداي ، بالبوروسيين ، وانه لم يكن عهد ذلك ما
يربط بينهم وبين سكان المانيا الآخرين ، حتى لقد
كانت لهم لغة خاصة تختلف عن سائر اللهجات
الجرمانية ، عُقِيَ على آثارها منذ ثلاثة قرون ، لا
أكثر . وبين هذه اللهجة البوروسية واللغة اللتوانية
التي يتكلمون بها اليوم في لتوانيا وفيلنو وغرودنو ،
قاربة لا تجحد .

وكذلك ليس بضائر الأمة الفرنسية انها تألفت

على مرّ الأجيال ، من عشرين عنصراً صهرت جميعاً
 في بوتقة التاريخ — التاريخ بمجّنه وأمجاده ، بانكساراته
 وانتصاراته . وكان من هذا التاريخ نفسه ، العام
 ١٧٨٩ العظيم الذي استهل عهداً جديداً في العالم .
 لا مندوحة إذاً من ان ندع جانباً ، في تحديد
 الامة والتعريف بسماتها ، مقاييس العلوم الطبيعية
 والبيولوجية ، بل تلك « اليوجنية » التي تستهدف
 تحسين السلالات الحيوانية ، ويزعمون ان في طوقها
 ايضاً ترقية الاعراق البشرية وتصفية الدم الانساني .
 فيجب ان نعتمد في تعريفنا ، العوامل الاجتماعية
 — الجغرافية والتاريخية ، وكل عامل من هذه العوامل
 يحتاج الى بحث منفرد لا يتسع له المقام .

الامة جماعة ثابتة من الناس : ليست خليطاً
 عرضياً يدّعي لوحدة عرق مكذوبة ، او اصفاء دم

مزعوم . تألفت بعوامل من التاريخ ، وليس بعوامل
متكلفة من الانتخاب الصناعي . ذات لغة مشتركة ،
وحياة اقتصادية مشتركة ، وارض مشتركة ،
وتكوين نفسي مشترك يجد عبارته في الثقافة المشتركة .
ولهذه الجماعة من الناس التي تسمى « امة »
وجود حي راهن هو وجود الافراد الذين تتألف
منهم — وزيادة . وهذه الزيادة هي التي تجعل من
مجموع افراد الامة كياناً متميزاً عن كيان كل فرد
منهم . وهي تحيا حياتها الخاصة ، وتستهدف اغراضاً
معينة ، فتعمل على بلوغها بواسطة من ينشط بهم
ذلك ، في داخلها وبين سائر الأمم .

٢ النتيجة العظمى

لبضعة أيام خلت ، إذ كنا نتحدث عن هذا المؤتمر^١ سألني أحد الأفاضل ، من الذين يعنيهم ان يعرفوا أكثر ما يمكن عن النشاط الفكري والسياسي في البلاد . . . سألني عن هذه العصبية ، عصبية مكافحة النازية والفاشية في سوريا ولبنان ، قال : « ما هو العمل الايجابي الذي تقوم به عصبتكم ؟ بل أئمة عمل ايجابي تقوم به ؟ »

ولعله أراد ان مكافحة النازية عبء تنهض به الأمم المتحدة في ميادين القتال ، وفي ميادين

١ اجتماع ثقافي عقدته عصبية مكافحة الفاشية والنازية .

الانتاج الصناعي ، وفي ميادين السياسة الدولية .
 فما تكون عصبتنا نحن ، في الخضم المتلاطم ، أو
 العاصفة الشائرة ؟ — ريشة أو بعض ريشة .. إعلان
 لرأي نافع ، أو تصريح عن موقف حسن .. لكن
 إعلان بسيط ، وتصريح ساذج ، يشبهان من عدّة
 وجوه ، ما ندعوه تجاوزاً ، بالبغض العذري أو
 الأفلاطوني .

« ما هو العمل الايجابي الذي نقوم به ؟ بل
 أثمة عمل ايجابي ؟ » لقد أتى ذلك الفاضل على ذكر
 الايجابية في سؤاله الواحد مرتين . فلو اني أمهلته
 إلى الثالثة ، لأمسينا بضرب من السحر ، أداة من
 أدوات الدفاع السليبي ، نتلهى حيناً بعد حين ،
 بنخق الأنوار ، وإطلاق صفارات الإنذار ..
 وكفى الله المؤمنين القتال .

لكنني لحسن الحظ ابتسمت . فعاظته ابتسامتي
 الخفيفة كشيء إيجابي .. وأنكر بشدة أن يكون
 ذلك جواب سؤاله الضخم . قلت : لا . إن هو
 إلا خاطر بدا لي ، وليس بسر من الأسرار . ان
 بعض اخواننا في العصبة ، كلما سمع أو قرأ شيئاً
 عن بواذر « انهيار المحور » كما يسمونه ، يسره ان
 يتكلف الدهشة العظمى ، والحيرة الكبرى ،
 فياتفت نحوي قائلاً : ونحن ؟ . اذا ما انتهى أمر
 النازية والفاشية في العالم ، ترى ما نحن صانعون ؟
 أتريد ان نصبح في العاطلين ؟ هلم بنا منذ الآن
 نبحث عن عمل آخر ..

وهكذا فعصبة مكافحة النازية اليوم ، في رأي
 هذا الصديق المازح وذلك السائل الجاد ، بين عمل
 لم يبدأ ، وعمل يوشك ان ينتهي .. وهكذا فثمة

سؤال ما زال معلقاً ، وسأحاول جهدي ، اكتبناه
 أولاً ، والاجابة عنه ثانياً .

قد تكون احدى نتائج هذه الحرب ، وفي
 بلدان هذا الشرق العربي بنوع خاص ، ان الحرب
 بما يلزمها من ظروف استثنائية ، ادخلت أو
 اوشكت ان تدخل الجماهير الذين يسمون « العامة »
 في دائرة نظر من يسمونهم : القادة — اعني
 المفكرين والادباء ، بله رجال السياسة . . العامة وما
 يلبسهم من حالات ، ويتصل بهم من شؤون ،
 على اختلاف انواعها ، او المعاشية منها في الاقل ،
 ثم تتبع سائر الشؤون . وبديهي ان السواد الاعظم
 من ابناء البلاد ، كانوا ، الى زمن غير بعيد ، فيما
 وراء افق الخاصة : كالألوان الغفل التي ليست تراد

لذاتها ، انما يراد بها ابراز صور الرسام .

ونخال ان اغلبية هذه الفئة من الذين سُموا أو
يسمون انفسهم « الخاصة » قد فتحت أبصارها على
ذلك المشهد ، مشهد تقدم الجماهير حتى تسد الافق ،
بشيء من الذعر وكثير من الدهشة ، لكن لن يلبث
الذعر حتى يغطي على الدهشة . فلطالما اصطالحنا على
تنحية « العامة » من ميادين الحياة العامة ، بما تمثله
هذه الحياة من ضروب الادارة ، وادوات الحكم ،
وتصنيف العلاقات ، وتوزيع الخيرات ، وتقرير
التكاليف ، كأن هذا جميعه متاع هوّلا . الخاصة ،
ليس ينازعهم فيه منازع : لا شركة للعامة في الحياة
العامة . . . ومما تحسن الاشارة اليه هنا ان « العامة »
و « العام » لا تدلان في الاصل اللغوي ، على معنى
من معاني الامتهان أو الازدراء أو الهجو ، التي اضافها

اليهما « الخاصة » او « الخاص » ، بل بالضد .
 وبوسعنا القول ان المفكرين في ظهرانينا ، ظلوا
 مدة مديدة ، يتخبطون على تخوم النظريات الغيبية ،
 والادبا . يتنادرون ويتظرفون فيما بينهم ، ورجال
 السياسة ، حتى « الوطنيين » منهم ، او الذين يسمون
 هكذا ، لا يعرفون ، او يتجاهلون ان الوطن الذي
 ينتسبون هم اليه — وليس الوطن الخيالي الذي
 يتوهمون انه ينتسب هو اليهم — ان ذلك الوطن
 الحقيقي قد يتجاوز حدود ذواتهم . والحكم سجال ،
 تتولاه فئة ، ثم تتولاه الفئة . . نفسها .

أما السواد الأعظم ، بهمومه الملحة وآلامه
 المباشرة ، وامانيه وآماله ، التي لا تفتأ تطلب من
 يحسها ويكتنفها ويترجم عنها ويعمل على تحقيقها . .
 اما السواد الأعظم ، بمسائله ومشاكله التي لا تفتأ تجد

وراء اجوبتها وحلولها السريعة .. أما السواد الأعظم
 بما يجيش في احشائه من حياة زاخرة مضطربة مشتتة
 تلتبس صيغها واشكالها ، وسبلها وغاياتها .. ان
 هذا السواد الأعظم يكاد لا يشغل حيزاً من
 الدائرة — الرحبة الضيقة — التي اقام حولها مفكرون
 وادباؤنا وساستنا ، كسد الصين .

واذا كانت بلاد الشرق العربي حديثة عهد
 بتلك الظاهرة الاجتماعية ، ظاهرة تقدم الجماهير حتى
 تسد الأفق — كما نتصورها ، فالمجتمع الغربي قد
 عرفها وتمرس بها ، وانتهج ولم يزل ينتهج مختلف
 الطرق لمعالجتها ، وبعضها وفق ، وبعضها اخطاء
 التوفيق . وأكبر الظن ان هذه الحرب ، بل الرحبة
 العظمى في اسباب الحياة ، وفي الافهام والضمائر ،
 ستكون أوسع خطوة يخطوها العمران البشري نحو

استقراره الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، وقد كان يقنع بالمسكنات .

ولن تكون بلادنا ، رغم ذلك السد الوهمي ، بمنزل عن هذه الحركة العامة التي تدفع الأمم إلى احتذاء اساليب جديدة في الفكر ، وصيغ مستحدثة من الحياة . ذلك هو الطوفان ، و « لا عاصم اليوم » . بحسبنا ان نستبق الاحداث ، فنوفر عن أنفسنا ما كابدته وتكابده الأمم قبلنا وحولنا ، من الاختبارات الموجهة ، والاصطدامات الناهكة .

قال أبو حيان التوحيدي : « سأني وزير صمصام الدولة عن زيد بن رفاعة في حدود سنة ٣٣٣ قال : لا أزال اسمع من زيد بن رفاعة قولاً يريني ، ومذهباً لا عهد لي به . وقد بلغني انك

تغشاه وتجلس اليه وتكثر عنده . ومن طالت عشرته
 لا انسان أمكن اطلاعه على مستكن رأيه .. فقلت :
 ايها الوزير ا هناك ذكاء غالب وذهن وقاد . قال :
 فعلى هذا ، ما مذهبه ؟ قلت : لا يُنسب إلى شيء
 لكن أقام بالبصرة طويلاً ، وصادف بها جماعاً
 لأصناف العلم فصحبهم . وكانت هذه العصابة قد
 تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصدّاقة ، واجتمعت على
 القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً ..
 الى آخر ما ذكره ابو حيان من امر جماعة اخوان الصفا
 فلو تطارحنّا الآن مثل ذلك السؤال عن
 عصابة مكافحة النازية ، فماذا نرى ؟

نرى طائفة من المثقفين ، وهم يؤمنون
 بالثقافة — بالثقافة على اختلاف انواعها .. كما يفهم
 الغرب اليوم ، وهو قريب جداً من مفهومها في

المجتمع العربي ، في عصوره الزاهرة ، اذ كان
 متطوراً متحولاً زاخراً بالحياة في جميع عناصرها
 ومظاهرها ، ومتجانساتها ومتناقضاتها . وهم يؤمنون
 بضرورة تلك الثقافة ، ولا يعرفون شيئاً اوجب
 عليها منها لهم ولبنى قومهم : يريدون ان يتكاثر عدد
 المشقفين ، إلى أبعد حد ممكن . . فطبيعي إذا ،
 جد طبيعي كما يقولون ، ان نعتقد ، في جملة ما
 نعتقد ، بأن من حقنا ومن واجبنا على السواء ،
 ان نرى رأياً في كيف يجب ان تبني الأمة ، وفي
 كيف يجب ان تُسّاس الأمة ، وفي كيف يجب
 ان تعيش الأمة . . وفي هذا نحن لا نفرق بين
 حق وواجب .

وان هذه الطائفة من المشقفين أيضاً قد

فتحت أبصارها على ذلك المشهد — مشهد تقدم
 الجماهير حتى تسد الأفق ، افق الحياة العامة ، لكن
 ليس بشيء من الذعر ، بل بكثير من الابتهاج .
 وبوسعنا القول انها تساعد على هذا التقدم .
 فالمفكرون منها لا يتخبطون على تخوم
 النظريات الغيبية ، والأدباء منها لا يتنادرون
 او يتظرفون فيما بينهم ، ورجال السياسة منها ، ولا
 سيما الذين يوصمون بـ «الدولية» يعلمون . بل يحسون
 ان الوطن الحقيقي يبقى وتمضي ذواتهم .. فهو وطن
 الجماهير ، او العامة ، او السواد الاعظم . ولا بأس
 بأن يُجعل للعامة « بعض » شركة في الحياة العامة .
 قبل ان تنشأ عصابة مكافحة النازية ، كان
 الافراد الذين تتألف العصابة منهم — لحسن الحظ —
 موجودين .. موجودين بصفاتهم التي ذكرت بعضها .

وليؤذه لي ، تطميناً لنفسي ولمن شاء منكم ، ان
لا احاول ، لحظة ، افتراض هدم وجودهم .

ان بلادنا ومن عليها متصل بالكون وحياة امم
وشعوبه ، فلا شيء مما يحدث فيه ، لا يعنيننا ،
سواء اكرهنا ام رضىنا . وليس ينفعنا التجاهل ولا
الانكار ، بل اخلق بنا ان نرضى بتلك الصلة التي
ترداد توثقاً ، فنكون على بينة من امرنا . نحن جزء
من كل ، فلن نكون بمعزل عن الحركة العظمى
التي تدفع الامم الى احتذاء اساليب جديدة في
الفكر ، وصيغ مستحدثة من الحياة .

سينهار المحور ، وسيقضى على النازية المتجسدة
في افطع الصور التي عرفتھا الدنيا ، وسيزول أعظم
خطر يهدد معالم قوميتنا ، ومظاهر حريتنا ، ومقومات
حياتنا .. لكن صديقي الذي يتساءل : « ترى ما

نحن صانعون ؟ أتريد ان نصبح في العاطلين ؟
انما يتصنع الدهشة والحيرة تصنعاً . فهو يعلم مثلي ،
مثلنا جميعاً ، اننا لن نعدم عملاً ..

٣ ما يؤلف ويجمع

نحن — ولا نقولها تمدها أو تبجحاً ، بل تقريراً
لواقع بسيط ، وتذكيراً بماض يكاد لقربه منا ،
وانغماسنا فيه ، يكون حاضراً — نحن فريق من
أهل هذا البلد ، كنا ولم نزل ، اذا فكرنا في
لبنان ، أو في الأقطار العربية المجاورة ، أو في
الشرق عموماً ، لا نفكر « لبنانياً » فحسب ،
ولا « عربياً » فحسب ، ولا « شرقياً » فحسب ،
بل نفكر أيضاً « دولياً أو عالمياً أو إنسانياً . »
ومن هذا الباب الواسع دخل أحدهم في السياسة
الوطنية اللبنانية .

لم يخطر لنا ذات يوم ببال ، اننا من قوم
 منكمشين على انفسهم ، في وطن منعزل في ذاته .
 كذلك لم نكن بحاجة إلى كثير من الفطنة والمعرفة
 والروية ، كي ندرك ان انكماش الامم على نفسها ،
 وانعزال الأوطان في ذاتها ، امسى في هذا الزمن ،
 وهماً من الأوهام ، وانه في الغالب وهم مؤخر
 إلى أبعد حد . نحن على مثل اليقين من ان تفكيرنا
 هو الصحيح ، وطريقتنا هي المثلى .. حتى يثبت
 -- ولن يثبت -- العكس . نحن في عصابة مكافحة
 النازية والفاشية ، ونحن في جمعية اصدقاء
 السوفييات ، ونحن في صف الامم الحرة المتحدة ،
 أقرب إلى لبنان ، وإلى العروبة ، وإلى الشرق
 كان أبي رحمه الله ، قبيل الحرب العظمى
 الماضية ، يدعو الله صباحاً ومساءً ، ان يرمي

« الدول » بعضها ببعض ، ويريد بالطبع : الاجنبية — اوروبة جملة . وكان يقول لي في تفسير تلك الدعوات الحارة المتصلة ، اننا لن نرتاح إلا متى شغلت اوروبة بنفسها ، فتأكلت ونزفت قواها .. ان اوروبة شغلت بالفعل ، لكن هل ارتحنا نحن ؟ لا ، بل قد أصابتنا تلك الحرب ، خلال أربعة أعوام سود ، بادهى ويلاتها . فلما انتهت كالعادة بمعاهدة ، لم يكن أعجل من « الدول » إلى الاشتغال بنا ، حتى ظن اننا همما الأكبر ، وشغلها الشاغل . إن أبي رحمه الله كان طيب القلب ، حسن القصد ، لكن لا يفكر تفكيراً سليماً ، لا يقدر تقديراً صحيحاً ، لا يُدخل في حسابه السياسي ، خفايا الامور — نعي اسبابها ونتائجها البعيدة غير المباشرة .

ولأمر ما سميت تلك الحرب العظمى حرباً
عالمية ، أو حرب توزيع العالم . فمن البديهي ، ونحن
جزء من العالم غير منفصل أو منعزل ، أن تكون
تلك الحرب حربنا نحن أيضاً ، وفي الدرجة الأولى .
أما قررت مصيرنا إلى حين ، فعشنا في هذا
« المصير » نحواً من خمس وعشرين سنة ، حتى
ادركتنا هذه الحرب العالمية الثانية ، ولا أدري
ببركة أي دعاء أو أية صلاة ؟ وما من شك في
أن هذه الحرب هي حربنا أيضاً ، من البداية إلى
النهاية ، بل قبل كل بداية وبعد كل نهاية .. لكن
أكبر الظن أنها ستكون فرصة مؤاتية ، لكي
نقرر مصير ذاتنا ، هذه المرة ، بذاتنا .
النازية والفاشية ؟ . أساء عجمية ، لا عربية
ولا لبنانية !

أصدقاء. الاتحاد السوفياتي ؟ عجباً ، أين نذهب
لنختار أصدقاءنا !

في صف الأمم الحرة المتحدة ؟ . من أين
إلى أين !

لسنة أو سنتين خلتا ، كان يُخيل إلى بعضهم ، وما
كان أكثر هذا البعض ! اننا تارة نحارب طواحين
الهواء : خصوماً لا وجود لهم .. وتارة نفترب
مهاجرين إلى أقصى المعمور ، لنصادق من ليس لنا به
حتى علاقة تجارية .. وتارة نحشر أنفسنا في صف لا محل
لنا فيه ، حيث يُنظر إلينا كما ينظر الى قريب معوز
متطفل غير مرغوب فيه ، ثم لن نلبث حتى ننبذ
تحت المائدة : مائدة الأمم الحرة . على اننا نرجو ،
بل نؤكد ان ستكون لنا مكانة أعلى من تلك
المكانة الوضيعة التي يتصورها المتشائمون ، او

يتمثلوننا فيها . انما يجب ان نعمل شيئاً ، بل اشياء ،
 لنكون بها جديرين ، فنارس حقنا الطبيعي والمشروع
 في الحياة الحرة المستقلة الآمنة الرغدة التي تطمح
 اليها نفوسنا ، وتستهدفها جهودنا ، منذ اجيال
 وقرون .

لقد اثبتت الحوادث ان النازية التي اخفنا على
 نفسنا مكافحتها ، حيثما تُقفت ، وبأي مظهر تبدت ،
 ولا سيما في شكلها الجرمانى المنكر ، خصم اضرى
 من طواحين الهواء . وهما هو الوحش الهتلري ،
 المضرج بدمه ، تحت ضربات الجيش الاحمر العظيم في
 الشرق ، والجيوش البريطانية والامريكية والفرنسية
 في افريقية ، والسلاح الجوي الحليف في الغرب ،
 والمقاومة الخفية والعلمية في بلدان اوروبة المحتلة . .
 هما هو الوحش الهتلري لم يصرع بعد ، لا يزال

باسطاً على العالم ظله المخوف ، المنذر بالويل والدمار ،
والاستعباد والاستعمار .. على ان للآفة النازية
رؤوساً كقطع الشياطين ، فلعلها هي شجرة الزقوم
التي رسا اصلها في الجحيم .

كذلك ، اذ نحن اخترنا الاتحاد السوفياتي صديقاً
يناط به الرجاء ، لم نبعد الشقة ، او نُطِل الرحلة ،
كي نعود اخيراً بالعجيب المستغرب . لا ، فالاتحاد
السوفياتي الذي دفع مباشرة عن بلادنا وبني قومنا ،
ببطولة ابنائه المجيدة ، اذى الحرب وويلات الغزو
النازي .. والاتحاد السوفياتي الذي يؤدي اليوم
قسطه الاكبر في الدفاع عن حرية العالم وعن تراثه
المدني ، ان لا تعبث بهما ، أو تعفّي عليهما ، القطعان
النازية الضارية .. والاتحاد السوفياتي الذي نعتبره
حقاً ، ارقى مظهر للحركة التقدمية الانسانية .. نحن لم

نتطفل ، ولم نفرض صداقتنا على هذا الصديق العظيم
 فرضاً . فهو منذ نشأته الاولى ، هو الذي محض
 الشعوب الصغيرة عطفه ورعايته في الدنيا قاطبة .
 وهو هو الذي بنى سياسته الداخلية والخارجية على
 ركن متين من حق الامم في تقرير مصير ذاتها
 بذاتها . نحن ، على الأقل ، نحسن اختيار
 اصدقائنا .

ان للاحداث منطقاً لا يحصى عنه . فليس من
 الزعم الباطل ، او الادعاء الفارغ ، قولنا الآن ،
 ان صمودنا في صف الامم الديمقراطية المتحدة ،
 ومكافحتنا النازية والفاشية ، يوم كان هذا الاسم غير
 معروف في بلادنا رغم وجود المسمى ، وصداقتنا
 للاتحاد السوفياتي الذي لا يفتأ يطن في اذنه ذباب
 الدعايات الكاذبة ، هي جميعاً حلقات مفرغة في سلسلة

الحوادث التي تعاقبت على بلادنا . فيثاق الاطلسي
 يبشر العالم بنظام يكفل للأفراد وللأمم ممارسة
 حقوقها وحرياتها ، ومندوب فرنسا المحاربة يعلن ،
 بالاتفاق مع حكومة بريطانيا العظمى ، استقلال هذه
 البلاد التام ، ثم يضرب موعداً قريباً لتمتعها بالحياة
 الدستورية — حلقات مفرغة في السلسلة نفسها . لقد
 كان نشاط منظماتنا ، الغريب في ظاهره عن الحياة
 القومية او الوطنية ، من هذه الحياة في الصميم .
 وكان من ثمرات هذا النشاط ان قلَّ عدد المتربصين ،
 ولا ادلَّ على ذلك من كثرة عدد المرشحين : انهم
 يخرجون الآن من التربص ، ليدخلوا النيابة ..
 ومما يحسن ذكره هنا ، والتذكير به على رؤوس
 الاشهاد ، ان لبنان لن يُحسب متطفلاً على مائدة
 الأمم المتحدة . فأولاً : ان حق الشعوب في الحياة

الحرّة المستقلة الرعدة لا ينبغي ان يقاس بضخامة
عددها ، واتساع رقعتها . وثانياً : ان لبنان قد ساهم
في هذه الحرب ، ولا يزال ، مساهمة ذات وزن ،
وكل شيء نسبي في الوجود . فالأراضي اللبنانية
ومواردها ، منذ نحو عامين ، في تصرف الدول
الخليفة ، والوف من اللبنانيين في صفوف الحلفاء
يقاتلون ويستشهدون ، ولا سيما في الجيشين الاميركي
والفرنسي . ان لبنان المقيم والمهاجر على السواء ،
يؤديان قسطهما في الجهاد ، عن طيب خاطر ، موفوراً
غير مضمون . لهذا أيضاً يجب ان نعتقد بان اعلان
الاستقلال اللبناني ، وعودة الحياة الدستورية ، هما
في منطق الحوادث ، في سلسلة الحلقات المفرغة ،
كبرى وصغرى ، اللازمة جميعاً ، دون تفاضل
بينها .

وبعد ، أليس من علامات الوقت ، الباعثة على
التفاؤل ، ان تستهل الفئات الديمقراطية في هذا
البلد ، حملتها الانتخابية ، بالاحتفال لعيد العمل
والعمال ، عيد نضال الافراد والشعوب ، في سبيل
احقاق الحقوق ، وإثبات الحريات ؟
ان هذا العيد هو أيضاً ، كمكافحة النازية
والفاشية ، وكصدقة الاتحاد السوفياتي ، وكجبهة
الديمقراطيات ، مظهر عالمي ، غير خاص بلبنان .
لكنه عيد لبناني أيضاً ، لسبب بسيط جداً ، هو ان
في لبنان ، شأن سائر البلدان ، عملاً وعمالاً ، وأفراداً
وجماعات ، تناضل لأجل الحقوق والحريات . ليس
في وسع لبنان ، ولا أي بلد آخر ، أن يخرج من
الدنيا ..

« لهذا العيد يحتفل العالم بأسره .. حتى المانيا

النازية . « هذا ما قاله لي أحدهم أمس ، وغمز بعينه غمراً ذا مغزى . قلت له : أجل ، ان نصف النازية اشتراكية ، لكن نصف اسمها .. ولما لم يستطع الجيش الالماني ان يغلب الجيش الأحمر ، سلط عليه ابواق الدعاية فابادته ، لكن عدّة مرّات . والمانيا تريد خير الشعوب ، لكنها تقتل وتدمر ، وتسلب وتتهب ، فاذا جاء وقت الحساب شكت وبكت ، ونادت انها تصلب نفسها كل ربع قرن ، لافتداء العالم .. كلا ، يا صاحبي . انه في المانيا ليس عيد العمل والعمّال ، بل عيد السخرة والارقاء . ما أجدرهم هناك بان يتناشدوا قول المتنبي :

عيد ا . بأية حال عدت يا عيد ا .

لقد أتى علينا زمن في لبنان ، وبين الطائفة

والاخرى ، أو بين أبناء دين وأبناء الدين الآخر ،
 كالحدود التي تفصل وطناً عن وطن : كدنا نحتاج
 إلى جوازات سفر بين الطوائف والأديان .. ونحن
 على يقين من ان نظاماً سياسياً ديمقراطياً صحيحاً
 كفيل بأن يحو تلك الحدود الوهمية المنجلة ، والمؤذية
 لكثير من الأوهام . ولا خسارة في ذلك على
 أحد ، اللهم إلا على نفر قليل من المستثمرين
 الكسالى . وأظن ان هؤلاء ليس يهمنا شأنهم .
 نحن بحاجة إلى ما يؤلف ويجمع ، لا إلى ما
 يفرق ويقطع : ان الوطنية تؤلف وتجمع . ان النظام
 السياسي الديمقراطي الصحيح يؤلف ويجمع . ان
 التقدم الاجتماعي يؤلف ويجمع .
 وكذلك عيد أول نوار ، فهو يؤلف ويجمع :

عيد العمل والعَمَّال ، عيد النضال في سبيل حقوق
الأفراد وحریات الامم ، على إطلاقها .
طوبى لمن يأتي إلى « النيابة » محمولا على
« اليد العاملة » القوية النظيفة .

٤ العين والمحرز

الخلق — ألا ما ندر — على دين الواقع أو
الحالة الراهنة . والقاعدة المشهورة ، المتردية برداء
العلم : « الناس على دين ملوكهم » لا تعني في
النتيجة غير هذا . فالواقع هنا هو السلطان — أي
السلطة القائمة أصولاً وفروعاً ، أركاناً وشيعاً ،
شخصاً وظلالاً .

وليس في طبيعة الوجود ان يعمل السلطان على
تبديل الواقع ، أو يطالب به ، أو يدعو إليه .
ففي كل تبدل عنصرٌ ثوري ، ولا يصح ان تشور
السلطة القائمة على نفسها ، أو الواقع على ذاته :

السلطان — أساساً وتعريفاً — قوة ، بل مجموعة قوى تحافظ على الحقوق والمراكز « المكتسبة » . فإذا جاء السلطان يعيث بها ، حَقَّتْ عليه تهمة الخيانة — خيانة مهمته ووظيفته ومنطق الأشياء .

سوى ان السلطان قد يشور على الواقع أو الحالة الراهنة أحياناً ، فيتناولها بالتبديل والتحويل ، لكن ليعود بها القهقري ، تمكيناً وتوكيداً لتلك الحقوق والمراكز المهددة — كلما آانس اقتراب العاصفة ، وامكنته الفرصة . حينئذ يذر قرن الرجعية من ثقب ثوب المحافظة ، أو من ائمالها . وآخر مظاهر هذه النزعة الوبيلة ، الحركة النازية التي اوشكت ان تطنى على العالم ، معرضة الترقى الانساني لادهى دهيا . عرفها التاريخ ، ليس بما أعدت من قوى ضخمة ، وسنت من سنن خطرة وحسب ، بل بما

شجعت النزعة الرجعية أيضاً في سائر اقطار الدنيا ،
وأغرت بتقليدها ذوي الحقوق المكتسبة جميعاً —
المكتسبة المهددة .

إن تكن القاعدة المشهورة : « الناس على دين
ملوكهم » متردية برداء العلم ، فالحكمة الماثورة :
« ليس في الامكان ، أبداع مما كان » تتحلى بجلية
التصوف .. وانها ، في لطف وقعها على الآذان ،
وعلى الاذهان ، لأشبه بالترانيم التي يُراد بها التنويم .
ففي الامكان ، دوماً على مدار الزمان ، غير
— إذا لم نقل : أبداع — مما هو كائن . وليست
سنة الوجود المحافظة ولا البقاء ولا الجود ، بل التطور
والتحول والصيرورة . وهل كان التاريخ الانساني
إلا حكاية النزاع المستمر المستحرق ، بين قوى الرجعية

ونزعة التقدم ، في فكر الانسان وفي أوضاعه ؟
وهي قصة — حسن الحظ — كالقصص التي تحترم
ذاتها ، يفوز فيها أخيراً ، في كل مرحلة ، الحق على
الباطل ، او الخير على الشر — نعني : الترقى على
الرجعية . بيد ان هذا الغلو في التفاؤل بما هو
كائن ، وفي التطير أو اليأس مما يمكن أو يجب أن
« يصير » ليس من اختصاص الشرق وحده . فقد
نال فولتير من « ليس في الامكان أبدع مما
كان » هذه ، في فجر الثورة الفرنسية — إحدى
مراحل التاريخ الكبرى — بامتع سخر والدعه .

يقولون لنا أيضاً : « هي القوة ، لا قبل لنا
بها . » كمن يشكو ضيق صدره : « هو الجبل ،
لا مزحزح له . » بل كمن يتأهب ليعط في نومه :

« هو القضاء فمن يدفعه ؟ » وكأني بهم يخشون
 ان لا نفهم ، على أحسن وجه واكمله ، ضرورة
 الرضى والقناعة والخنوع والتسليم ، فهم يأتوننا
 ببرهان لا يقطع قطعاً ، لكن يخز وخزاً .. يقولون
 لنا : « ان العين لن تقاوم المخرز . » اما التاريخ
 فقد عرف حواراً يدور بين تلك العين وذلك
 المخرز .. ودائماً كان ينبت للعين ظفر وثاب .

٥ كل شيء يتغير

إذا جاءكم من يقول لكم بلهجة الناصح المشفق
الأمين ، وسياء العاقل المجرب الحكيم : « لا شيء
يتغير » فلا تصدِّقوه . هذا الرجل هو أولى الناس
بأن لا يُصدَّق ، بأن لا يوثق بكلامه ، لأنه أبعد الناس
عن الحكمة والتجربة ، وألَّا فعن الصدق والامانة :
يريد أن يؤيسكم من أنفسكم .. قولوا له : « كلا ،
بل كل شيء يتغير . »

والواقع أن كل شيء يتغير .. حتى الجهال وسيئو
النية من بني قومنا ، أولئك الذين كانوا ، لثلاث
أو أربع سنوات خلت — غفر الله لهم ! — يرجون
في النازية خيراً ، أو يحسبون أن فوزها كقضاء الله

لا دافع له ، ولا عاصم منه .. حتى اولئك الجهال
 وسيئو النية تغيروا اخيراً ، وتغيروا كثيراً . لكن
 من الانصاف ان نعلن على رؤس الأشهاد ، ان
 الجهال كانوا اسرع من سيئي النية ، اسبق الى
 الهداية . ان سيئي النية يمشون الى الحق مترددين
 متقاعسين محرجمين ، كالذين عناهم المتصوف ابن
 عطاء الله السكندري بقوله : « عجت لقوم يقادون
 الى الجنة بالسلاسل ! »

ولسنا ندعي لعصبة مكافحة النازية والفاشية
 من فضل في هذا التغير او التطور او التحول ،
 بقدر ما نعزوه الى الاحداث الصغار والجسام ، على
 السواء . فلا جرم ان الانكسارات التي منيت بها
 جيوش المحور في ميادين القتال ، كانت حججاً أقوى
 من حججنا ، وبراهين ادمغ من براهيننا . ان معركة

ستالينغراد الساحقة لأبلغ من كل الخطب ، وهزيمة
 افريقية الصاعقة لأوعظ من كل المواعظ . بقي ان
 لا يخالط النفوس شي . من مرارة الخيبة او حرقة
 الاسف ، بعد تلك النتيجة — المرجوة عندنا ، غير
 المتوقعة عندهم .. وليقض الطغيان النازي ، وأي
 طغيان يسمى باسم آخر ، غير مأسوف عليه !

كل شي . يتغير ! حتى النازية التي كان لها لبدة
 الاسد ، تغيرت . ها قد نبت لها في الصقيع الروسي
 صوفُ حملٍ للدفء ، وفي القيظ الافريقي ساقا نعامة
 للهرب .. اما « الجنس » الايطالي ، فقد لبس بادي
 بد . جلد الحمار لعدم الفهم .. عفواً ! أنا لا أتعمد
 اهانة احد ، لكن من باب تقرير الواقع ..

لقد كان لعصبتنا في كل بلد ، احتفال للنصر
 الافريقي . ولعل بعضهم يتساءلون : « اما لهذه

الاحتفالات حد ؟ » كما يتساءل المغني : « اما لهذا الليل آخر ؟ » ولا يفتأ يتساءل حتى يجيبه الصبح ..
 واكبر الظن اننا سنظل نحتفل حتى يُرزق الحلفاء نصراً جديداً ، او تُفتح الجبهة الثانية مثلاً .. ماذا تريدون ؟ نحن من المولعين بالاجتماعات على انواعها ، من سياسية وادبية وثقافية ، المؤمنين بحسن عائدتها وجدواها ، لا يهمنا السبب الذي من اجله نجتمع ، متى يكن فرصة للاتصال باخواننا ، والتحدث اليهم في مختلف الشؤون ، والحديث شجون .

ومن تحصيل الحاصل القول بأن اغتباطنا هذه المرة اعظم منه في كل مرة . فاجتماع يعقد في طرابلس له دلالة ابلغ اثرأ ، ومعنى ابعد مدى ، من اي اجتماع آخر . ان الفيحاء كانت ولن تزال ، في طليعة المدن اللبنانية ، بله العربية ، وعياً فكرياً

ويقظة سياسية . سوى ان اهل الفيحاء يريدون
 اقناعنا باننا جئنا لنعطيهـم ، على حين جئنا لناخذ عنهم
 ونقتبس منهم . فاعجب لمن يعطيك ، ويوهبك انك
 تعطيه : تلك غاية الغايات في الاريجية والسخا .
 وبعد ، فليس الذنب ذنبنا ، ولا الخطيئة
 خطيئتنا ، اذا تعددت في اسم عصبتنا ، الالفاظ
 الاعجمية ، من نازية وفاشية . فنحن — يشهد
 الله — لم نخترع هذه الالفاظ ولا مدلولاتها ، كما
 اننا في الوقت نفسه ، لانبج الرطانة . نرجو ان
 نستبدل عما قليل ، متى تسلم النازية نفسها الاخير ،
 بهذا الاسم المتعاجم اسماً لطيفاً يكون مبرأ من
 العجمة .. لكن لا بد ، على ما يظهر من « المكافحة »
 في كل حال ، كأنما كُتب علينا ان نكافح دائماً ،
 شيئاً من الاشياء ، بل دا من الادواء .

كل شي . يتغير ، حتى اسم عصبتنا .. شي .
واحد لا يتغير ، هو عقل الذي يريد ان يؤيسنا من
انفسنا ، ومن مستقبل امتنا ، فيقول بلمهجة الناصح
المشفق الامين ، وسيا . العاقل المجرب الحكيم :
« لا شي . يتغير .. » نحمد الله على ان الكون غير
مربوط بعقله .

وليس التاريخ الا حكاية التغير الطاري . على
علاقة الانسان بالطبيعة ، كيف يكتننها ويسخرها
ويستثمرها لمرافقه ومنافعه العاجلة والآجلة ، والتغير
الطاري . على علاقة البشر بعضهم ببعض ، أفراداً
بافراد ، وجماعات بجماعات ، كيف يوزعون بينهم
التكاليف والجهود والخيرات . هو تغير دائم مستمر
لا ينتهي (ولا تنتهي حكايته) يسير نحو الاعدل
فالاعدل ، والاكمل فالاكمل .. ونحن على

مثل اليقين من ان العالم الذي نعيش فيه يجتاز بهذه
الأزمة ، خطوة من خطاه التاريخية العظمى ،
موجهاً وجهه شطر الإنسانية الفاضلة المثلى . لذلك
وقفنا من الأزمة ، موقفنا الصريح ، منذ البداية .
وإذا كنا قد حاربنا النازية ، وهي أدهى آفة
رجعية تمرست البشرية بها ، فليس عجيباً أن نشمر
اليوم لمحاربة الرجعية في بلادنا ، بل العجيب ان
لا نحاربها .. ان لنا حقاً في الحياة الحرة الرغدة
الآمنة — المتقدمة — التي تهواها ضمائر الشعوب في
العالم قاطبة ، ولا تفتأ تناضل من أجلها . مَنْ يَعْشُرُ
يرَ ان أشياء كثيرة تتغير ، حتى في هذا الوطن الذي
يريده بعضهم متحفاً للعاديات أو « الحشب المسندة »
ويأبى إلا أن يكون وطناً للجماهير التي تكدح
وتفرح ، وتألم وتحلم ..

خاتمة

١٥٩

يظهر ايها الإخوان الأفاضل ، ان موقفى في هذه الحملة الانتخابية على إطلاقها ، من أصعب المواقف . والصعوبة — في نظر بعضهم لا في نظري — ناشئة عن أسباب شتى ، قد يكون اهمها هو اننى — وليس ذلك بسر من الأسرار — لا مال عندي . . لا مال عندي اشترى به اصوات الناخبين الذين — على ما يقال — يبيعون أصواتهم . . ولست أدري الآن أي الأمرين أدعى للعجب : أن يوجد أناس يبيعون أصواتهم ، أو أن يوجد أناس يشترونها . لكن المؤكد ان لا بيع ولا شراء إلا حيث يوجد البائع والمشتري : يجب إذا ان نصدق

الحكاية . فأما والحكاية هكذا فمن المؤكد أيضاً
ان البضاعة ستتبع ، هذه المرة ، السوق من
حيث الغلاء الفاحش ، والعياذ بالله !

وثالثه ، لست أحسد الغني على أموال ينفقها
في سبيل لهوه أو حاجته ، فكيف أحسده على
شراء اصوات ؟ ليصدق من شاء ، وليكذب من
شاء : يبقى اني أعلم الناس بنفسي . أنا أفهم من
البيع والشراء ما علمنيه المرحوم والدي ، عبد الرحمن
ابو عمر ، لما مارست التجارة في دكانه بضعة أشهر ،
بصورة متقطعة . تعلمت ثمة ان التاجر يشتري بضاعة
كي يبيعها فيما بعد ، يربح قليل أو كثير .. وكان
يسمىها التجارة المباركة .. أما أن تُشترى الأصوات
وتباع ، فهذا ما يتجاوز دائرة فهمي . لو كانت ،

على الأقل ، أصوات المغنين والمغنيات ، الحلوة
 الرقيقة المطربة ، إذا كنت أتصور انها تُشْرِى كى
 تعباً في الصندوق .. لا صندوق الاقتراع ، بل
 الفنغراف !

صحيح ان المرحوم أبى كان يبيع بعض
 الأصناف برسامها .. وكان يسميها الأصناف
 « الفقيرة » ، كشحط الكبريت مثلاً . لكنه ،
 والله الحمد ، كان يربح « الفراغة » .. ألا فقولوا لي
 الآن : في هذه الصفقة ، بين الناخب والنائب
 - أو ، وهو الأصح ، بين المصوّت والمصوّت
 له - عند صندوق الاقتراع ، هل يربح النائب
 الكريم « الفراغة » ؟

وليس عجباً ، بعد ان تتم الصفقة ، ان نرى
 الفريقين وقد ادار كل منهما ظهره للآخر ، وسار في

ناحيته ، ليعمل على شاكلته ، هذا الى ندوة البرلمان
وذاك الى مشاغله اليومية ، لا يفكر احدهما بصاحبه
إلا إذا اطل الله عمرهما الى الموسم المقبل ، فيلتقيان
كرة اخرى ، ويجددان الصفقة ، والله هو
الرزاق !

ويظهر ان النائب خلال هذه الفترة — القصيرة
او الطويلة بقدر ما يعيش المجلس — يكون ارحب
صدراً من ان يسأل الناخب عما صنع بالورقات التي
نقده إياها . فيقابله الناخب بمثل معروفه ، فلا يسأله
عما فعل بالاصوات التي باعها منه : لقد أصاب كل
واحد حقه ، واخذ نصيبه .

قرأت قصة عنوانها « الرجل الذي باع ظله » .
انكم لتتساءلون ولا ريب : « كيف يبيع رجل
ظله ؟ ومن هو هذا التاجر الموفق السعيد الذي

يشتري ظلال البشر ؟ » لكن لو علمتم ان الذي
اشترى من بطل القصة المسكين ظله ، هو الشيطان
لما رُب في نفسه ، لبطل عجبكم . ان ابليس وحده
يعرف كيف يتاجر بالظلال . . وبالاصوات .

قال لي بعض الاصدقاء او اشباه الاصدقاء :
« ليس عندك مال ؟ إذا فكيف وكيف وكيف
تريد ان تكون نائباً ؟ » سألني : « كيف ؟ »
ثلاث مرات متواليات . يريد ان يؤيسني ، او لعله
يودّ لو يجرسني . اجبته : « اريد ان اكون نائباً
رغم ورغم ورغم ان لا مال عندي . » اردت ان
اقطع طريق الجدل . قال لي : « ليس هذا بجواب . »
قلت له : « ليس سؤالك بسؤال . » ولما نظر إليّ
مستغرباً ، مستظلاً ، اجبته وانا اغمز بعيني : « ذاك
سر المصلحة . »

والآن سأفشي اليكم ، ايها الاخوان ، سر
المصلحة . هو غاية في البساطة ، حتى انه يشبه
الاحاجي او الالغاز الصبائية : ان اقلية الناجحين
هي التي تباع اصواتها ، فتختلس هكذا « الاكثرية »
اختلاساً . هم الفقراء مادة ومعنى ، ومادة في
الاغلب . اما اكثرية الناجحين ، وهم الاطايب
والاخيار والافاضل والواعون ، الى آخر الصفات
الحميدة ، فلا يتدخلون في الانتخاب . انهم يعتزلون ،
بل يهربون من المعركة . انهم يحفظون اصواتهم ، كأنه
ضرب من الاحتكار .. واني لاتسأل ، وحقني ان
اتسأل ، الآن أمامكم : أي الفريقين اعظم اساءة
الى امته والى بلاده ، او الى « النظافة » بنوع
عام ؟ كلا ، انا لا اتسأل ، بل اطرح عليكم ،
انتم ايها السادة ، السؤال ..

اخواني ١ . قاتل الله الانتخابات . ان الانتخابات
تضطر المرشح الى التحدث عن نفسه . لكن اطمئنا
فلن احدثكم عن شي . من هذا القبيل . لو كان في
نيتي ان انقص عليكم هذا الاجتماع اللطيف ، لالقيت
خطبة انتخابية ، اقول لكم خلالها : « انا ا » مئة
مرة ومرة .

شهدت ذات يوم حفلة من ذلك الطراز الضخم ،
وقد وقف احد ممتني السياسة الذين يشتركون
الاصوات او يأخذونها بالحيلة ، يتكلم . سمعته
يذكر جبينه ، ولا ادري لاية مناسبة . اخذ يسميه
« الجبين الناصع » ثم يضرب بكفه على جبهته .
وكانت بيضاء حقاً ، لسبب بسيط هو ان صاحبنا
ليس بأسمر اللون ، لا لسبب آخر . وكنت وانا
اصغي اليه ، انتظر ان يخطي ، فيضرب بيده على

قفاه .. ثم انتقل الى الحديث عن قلبه ، قلبه
 الكبير الذي يسع كل شيء : الوطن والامة ،
 واجداد الماضي وآمال المستقبل . فاذا به يلطم بغتة
 صدره ، وفي الجانب الايسر .. العجيب انه لم يخطي
 جهة قلبه ا

والواقع ان الجبين لا يثبت شيئاً ، والقلب لا
 يحتوي غير المادة المعروفة . لكن لا بد في خطب
 الدعاية الانتخابية وغيرها ، على ما يظهر ، من لطم
 الجبين الناصع ، والاشارة إلى القلب الكبير . ولعل
 لذلك الخطيب عذراً . فحبذا لو كان الصدق والأمانة
 والإخلاص والنزاهة — حبذا لو كانت هذه المزايا
 تبدو للعيان ، كأرنبة الأنف مثلاً . إذاً لكان
 الناحبون الذين لا يعرفون منطق الكيس ، يميزون
 بين المرشحين ، فيصدقون هذا ويكذبون ذاك ،

لأن لكل منهما علامة فارقة .

أيها الإخوان ! ليس عندي مال . كذلك ليس لي أنف انتخابي بارز يثبت لكم صدقي وأمانتي ، وإخلاصي وزاهتي . فانا مضطر ، كي أنفذ الى قلوبكم وضمائركم ، أن أتوسل بالوسائل البسيطة المعروفة . هذا برنامجي في أيديكم . هو برنامج صريح متواضع .

قد تقولون لي : « ان البرامج تتشابه . » أجل ، لكن الأشخاص يختلفون . انهم لا يختلفون بشكل أنفهم طبعاً ، بل بما يبعثونه في النفوس من ثقة . وهنا يبدأ عملكم أنتم ..

نحن ، إن كننا أقوىاء واثقين من الفوز ، فنكم نستمد قوتنا وثقتنا . انكم قادرون على ان تبرهنوا للقاصي والداني ، ان الضمائر النزيهة والقلوب

الواعية ، ليست في هذا البلد ، من القلّة بحيث
يتصوّر الكثيرون .. ان لكم الكلمة الأولى
والأخيرة . (تصفيق) .

٢

بعد بضعة أيام ، وليس يوم الأحد ببعيد ،
تنفجر في سماء هذه العاصمة ، قنبلة ولا كالقنابل ..
لن تكون ، على كل حال ، من نوع هذا الرصاص
الذي يطلقه — وليس يفهم عاقل لماذا ؟ — مصطنعو
الجماسة هناك وهناك ، في المعسكرين الانتخابيين ،
فيصم الآذان ، ويخدش الأذهان .. ذلك الرصاص

الأحق الذي أيسر ما يُقال ، وسط هذا الصحو الذي يُظَلِّنا ، وهذه المدنية التي تكتنفنا ، وهذه السلم التي تنتظرنا ، إنه موضوع في غير موضعه ، بل لا موضع له البتة .. ليته كان في ميادين القتال ، في جبهة الامم المتحدة . ذلك الرصاص الذي جاء متأخراً ، كأنه لم يعلم ان حرب الحرية والانسانية على الطغيان والبربرية ، اوشكت أن تنتهي ، فليست بحاجة إلى هذا الضرب العجيب من الرصاص الذي لا يقتل ، لكنه يُزعج .

ستنفجر ، ايها الاخوان ، القبلة المرجوة عندكم ، المخوفة عندهم . سيسجل التاريخ ان الشعب اللبناني ، هذه المرة ، لم يدع مجالاً لمشعبذة السياسة ، ومرتزقة الانتخابات ، يتآمرون على روحه فيحجبوها ، وعلى إرادته فيخنقوها ، وعلى أقداره

فيبيعوها ويشتروها . سيسجل التاريخ ان الشعب اللبناني هذه المرة ، قد اعطى اولئك المشعبذين والمرتزقة درساً لا ينسونه ابد الدهر ، وارسل الى مجلس الامة نواباً عن الامة يقدرون كرامة الانسان ، وحرية الاوطان .

اثنوا لي ايها الاخوان ، اثنوا لبيروتي عريق في بيروتيته ، ان يؤكّد لكم ، ان الشعب هذه المرة ، الشعب البيروتي الاصيل ، المثقف والعامل ، سيخرج من عزلته المجرمة ، وينزل في الممعة ، مناضلاً معبراً عن إرادته الصادقة أن يكون له نواب جديرون به وبمستقبله ، لهم برنامج حياة قبل ان يصبح لهم برنامج انتخابي ، بل قبل ان خطرت لهم الانتخابات ببال .. صحيح ان بيروت بلد الصفقات التجارية ، لكن الانتخاب هذه المرة ، لن

يكون سوى صفقة شعبية وطنية « نظيفة . » ان بيروت التي ترسل اشعة الثقافة والوعي السياسي ، في الاقطار العربية كافة ، فتضي . ما حولها ، لن تبقى في الظلمة بعد اليوم . ان على بيروت واجباً ، هو ان لا تنسى طرفة عين ، انها عاصمة شعب حر في وطن مستقل .

ونحن أيها الإخوان ، نحن في هذه المعركة الانتخابية ، لا نريد ان نكون ، يشهد الله ، سوى الدرس الذي يلقيه الشعب اللبناني على أولئك المرتقة ومشعبذة السياسة . لا نريد ان نكون سوى الوسيلة التي يتوسل بها الشعب اللبناني إلى إثبات ذاته وإرادته وكرامته . لا نريد ان نكون سوى البرهان الذي يقيمه الشعب اللبناني على جدارته بالحياة الحرة المستقلة التي طالما تآقت نفوس

أبنائه اليها ، وجاهد احراره من أجلها . . بناستمحو
 بيروت إثم الانتخابات الزائفة ، وتغسل عارها .
 أيها الإخوان ١ . بإزاء هذه القوى الضخمة
 المتنوعة التي تتألب علينا من كل ناحية ، وتُناوِؤنا
 سرّاً وعلانية ، ولا سلاح لنا إلا تأييدكم ، ولا
 رسال إلا ثقتكم ، سنصمد ونربح المعركة . نحن
 الذين ربّحنا حرب الديمقراطية في العالم ، كيف لا
 نربح معركة انتخابية في لبنان ؟ ١ (تصفيق وهتاف) .

٣

ويجب ان اسلم الآن ، بأننا خسرنا المعركة
 الانتخابية في لبنان ، مع أننا انتصرنا في حرب
 الديمقراطية في العالم . لكن قيل لي ان إخفاقي في

الانتخاب النيابي كان كالنجاح . فآه من
 « كاف » التشبيه هذه ! انها تهم بان تنتقل من
 كتابتي ، إلى سيرتي ..

في البرج العاجي

١٣	
١٤	١ رواية ذات فصاين
١٦	٢ خبر على ثلاث روايات
١٩	٣ الكارثة
٢٢	٤ التاريخ يعيد نفسه
٢٩	٥ ريمى الاول

بين بين

٣٥	
٣٦	١ الادب والمجتمع
٦٢	٢ تلميذ مجتهد
٦٧	٣ ابن الجيران يأخذ الشهادة
٧٣	٤ الحرية والكسل
٧٩	٥ اليتيم العربي

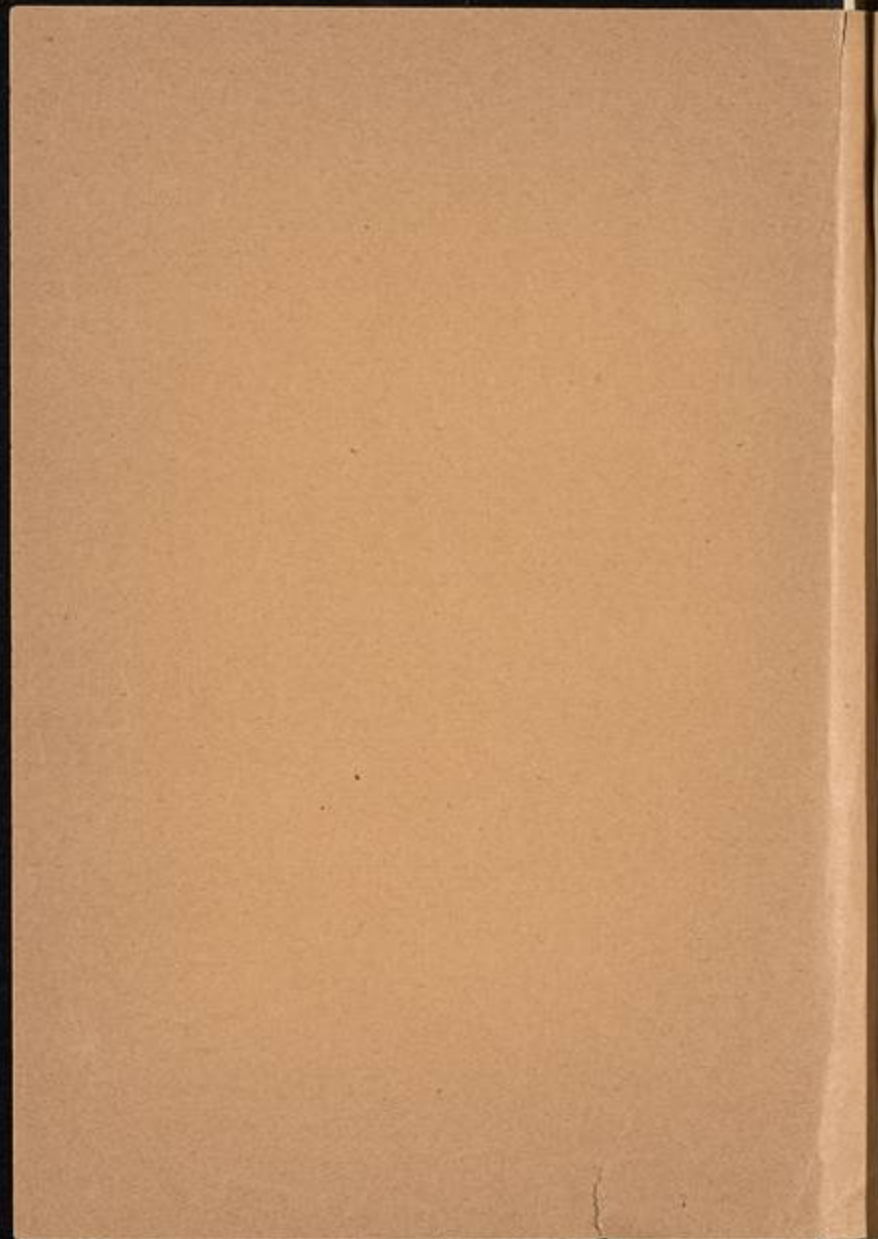
في الساحة

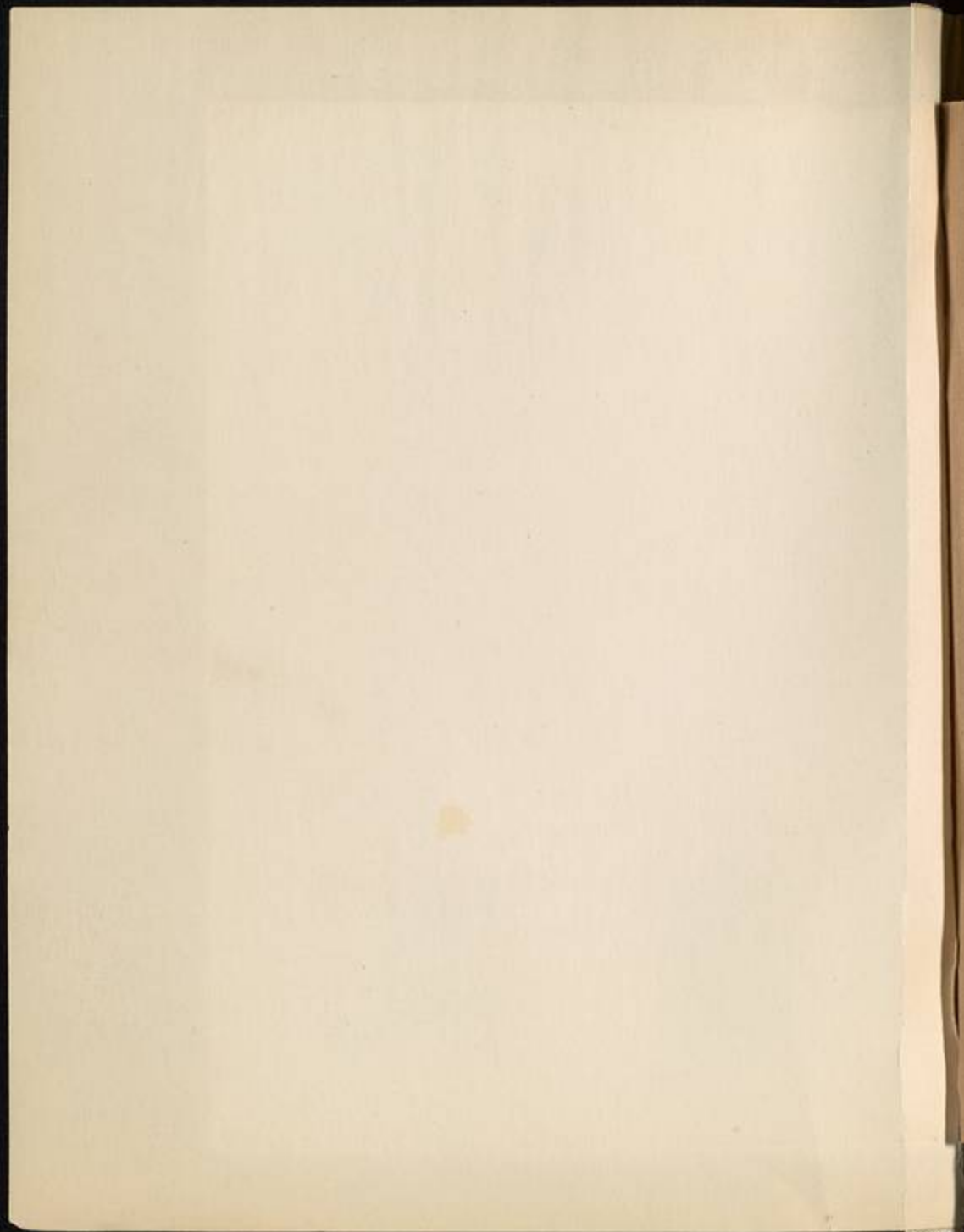
٨٩	
٩٠	١ تعريف الامة او التعريف بها
١٠٤	٢ النتيجة العظمى
١١٧	٣ ما يولد ويجمع
١٣١	٤ العين والمخز
١٣٦	٥ كل شيء يتغير

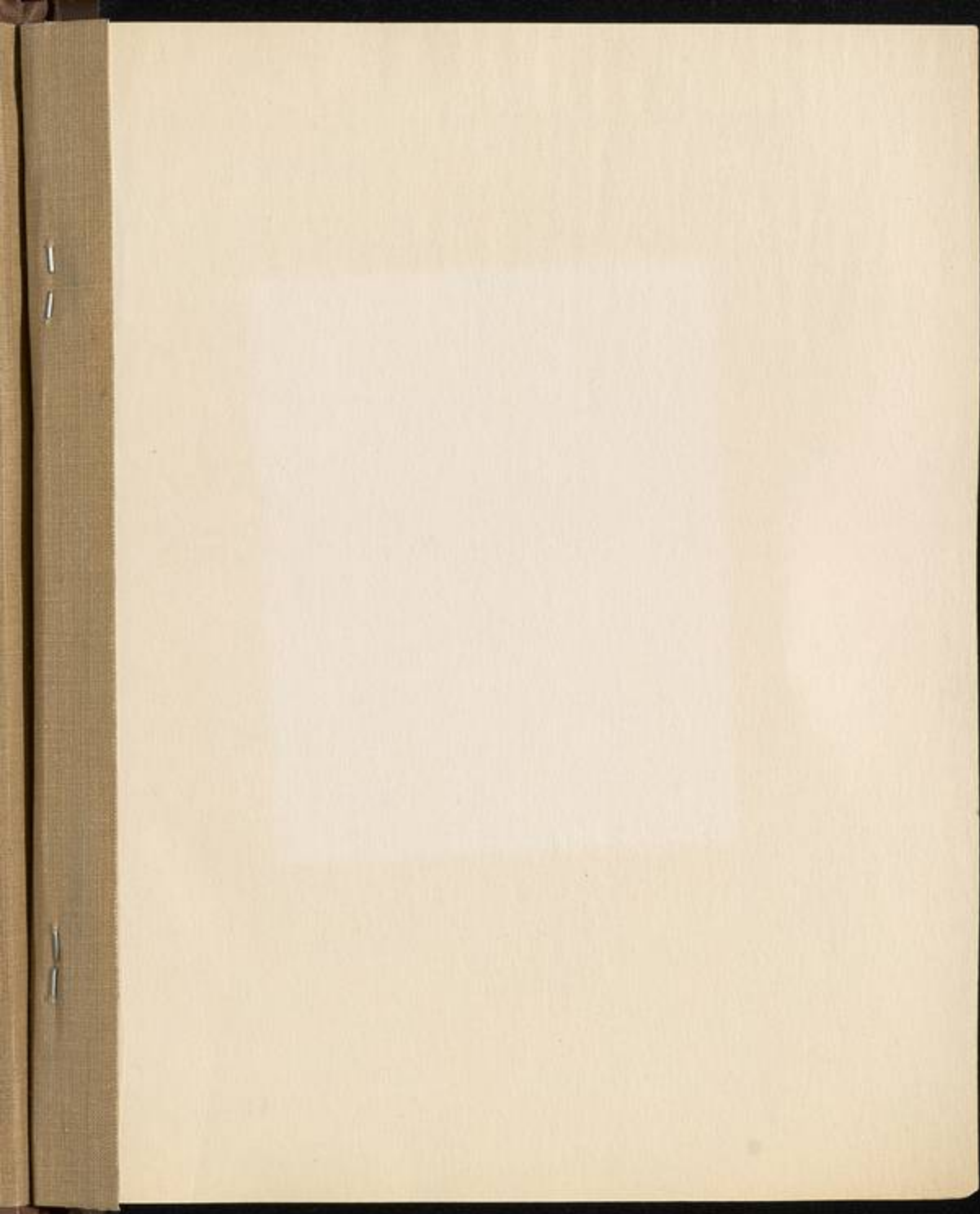
اتمى طبع هذا الكتاب على

مَطْبَعُ الْكَشَافِ

في ٦ تشرين الثاني ١٩٢٢ .







Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58869018

893.7F179 O

Adib fi al-saq /

893.7F179-0